عبدالوهاب السيد الرفاعي

ملاذ 2

الصندوق الأسود للبنات



فانتازيا للنشر والتوزيع
FANTASIA FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTION
الطبعة الأولى

العنوان

مــــــــلاذ 2

تأليف

عبدالوهاب السيد الرفاعي

الطبعة

الأولى 2024

ردمك:

978-9921-737-91-2

رقم الإيداع: 2023/2097

تصميم وإخراج

فانتازيا للنشر والتوزيع



فانتازيا للنشر والتوزيع
FANTASIA FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTION

تنويـه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول:

أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

يوم ليس ككل الأيام

- وأخيرا قررت أن تأخذ إجازة يا دكتور.. هل تخطط للزواج؟!.

قالها أحد الزملاء الأكبر سنا أثناء زيارته لمكتبي وقد علم بأمر إجازتي.. فأخبرته مؤكدا بابتسامة هادئة أنها بالفعل الإجازة الأولى لي منذ مدة ليست بالقصيرة.. وإنني سأقضيها على الأرجح في شقتي ولا علاقة للأمر بالزواج.. ليرد هو متهكما شاعرا بخيبة أمل:

- أظنك تعرف (متلازمة العش الفارغ)(1).. أعتقد أنها ستصيبك في المستقبل القريب رغم أنك لم تتزوج أصلا.. فعمرك يقترب من الـ 50.. المعذرة لكني أشعر أنك مختل.

سألته باستنكار شاعرا بالإهانة:

- مختل عقليا؟!.

رد مصححا بسرعة:

- بل مختل قلبيًا.

لا أعرف لماذا يظن الجميع أن التقدم بالعمر يجعلهم أكثر حكمة ونضجا.. فهذا الكلام بمنتهى الغباء.. لأن السفيه يكبر في السن ومضطرب الشخصية يكبر في السن أيضا.. وأنا لن أثق بشخص لمجرد أنه مسن فقط.. دعكم من أن هناك مسنّين لصوص ونصابون.

قلت بشرود محاولا توضيح وجهة نظري:

- صدقني.. أنا لا أصلح كزوج.. حياتي صاخبة تمتلئ بالمغامرات والصراعات الفكرية مع نفسي.. ولا أستطيع أن أكون مسؤولا -عاطفيا على الأقل- عن فتاة.. قد تنبهر هي بي في البداية.. لكنها ستشعر بالملل فيما بعد.. لأنها ستجد نفسها وحيدة.. مثلي تماما.. الفارق أنني أحب وحدتي.. وهي ستكره وحدتها.. وستكرهني أيضا.

تحدث زميل آخر كان يجلس معنا.. إذ قال بسخرية موجها كلامه لي:

- كوني عشت تجربة زواج فاشلة انتهت بالطلاق.. دعني أخبرك بنصيحة مختلفة يا دكتور لكنها هامة جدا.. فمن يحبك من أجل مظهرك.. تأكد أنه سيرحل.. أما من يحب قلبك وعقلك.. فسيرحل أيضا.. لا أحد يبقى.. نياهاهاهاها.

قهقه الزميل الأكبر سنا ضاحكا قبل أن يتمالك نفسه ويدافع عن وجهة نظره.. أما أنا فقد ظللت أستمع وأنا أنظر إليهما من دون أن أدخل في النقاش.. لأنني لا أحب ضياع وقتي من أجل إثبات وجهة نظري.. إنني منشغل بصراعات كثيرة مع نفسي يجب أن أنتصر فيها.. وهي الأهم.

سألني الزميل الآخر نفسه وبجدية:

- كيف صغرَت كل العلاقات في عينك ولم يعد لها معنى يا دكتور؟!.

قلت بشرود:

- حدث هذا بعد أن عثرْت على الكنز.

نظر إليّ الزميلان بلا فهم.. وغمغم الزميل الأكبر سنا مستفسرا:

- أيّ كنز؟!.

قلت وأنا أنظر إلى عينيه:

- الاكتفاء.

سكتا وهما يتفكران بكلامي.. وغرقت أنا في خواطري للحظة مستذكرا رحلة التغيير الهائلة التي قررت خوضها في حياتي منذ سنوات طويلة.. حيث وضعت هدفا واحدا تندرج تحته كل احتياجاتي.. كان الهدف هو: ((كيف أكون قويا وحدي؟!)).. وهذا ما أسعى إليه حاليا رغم صعوبة الأمر وشعوري بالحاجة

لأحدهم في حياتي بين وقت وآخر.. إلا أنني أقاوم مشاعري هذه محاولا التركيز على نفسي أكثر والاستمتاع بوقتي بطريقتي الخاصة.. ستكون أمامي ساعات طويلة في إجازتي برفقة الكتب والأفلام الأجنبية والشبكة العنكبوتية والوجبات الجاهزة من شركات التوصيل.. ولن أحتاج أكثر من ذلك.

نظرت حولي محاولا تغيير الموضوع والبحث عن أي شيء أقوله.. لأرى هاتف زميلي الأكبر سنا على مكتبي وأصطدم بصورة خلفية هاتفه مع حفيدته كما علمت منه.. لأبتسم بوِد مؤكدا له أنها طفلة جميلة متمنيا لها الصحة والعافية.

ويبدو أنني ارتكبت غلطة فادحة للأسف حين ذكرت سيرة حفيدته.. أنا لست جَدّا أو أبا بالطبع.. لكني أرغب فعلا بمعرفة الرغبة الملحّة التي تصيب هؤلاء الذين لا يرتاحون أبدا إلّا بعد أن يعرضوا لك صورا مختلفة لأطفالهم أو أحفادهم.. فظللت أستمع إليه مجاملا.. إلى أن انتهى أخيرا لحسن الحظ وهو يبتسم بدوره لأنه يعلم أنني لا أحب كثرة الكلام.. ثم سألتهما إن كانا بحاجة لأي شيء قبل غيابي الذي سيطول شهرا كاملا.. فتمنيا لي إجازة سعيدة.. وصافحاني بحرارة قبل أن يتركاني ويرحلا.

جلست ألملم أوراقي من على المكتب وآخذ كل الأشياء التي قد أحتاجها في شقتي أثناء إجازتي.. ثم خلعت رداء الأطباء والساعة تجاوزت الثانية ظهرا بقليل لأسير متجها إلى خارج المستشفى وأنا ألقي التحية على هذا وذاك.

يراني أحد عمال النظافة فنتبادل الابتسام ببرود.. هذا العامل لا يحبني بالمناسبة.. أرى هذا واضحا في ملامحه.. والسبب ببساطة أنني لا أمنحه أي مال كما يفعل بقية الزملاء أو موظفو المستشفى بين وقت وآخر.. لأنني أحمل قناعة تامة أن من يستحق المساعدة هو الطفل والعاجز والحيوان فقط.. أما هذا العامل فهو رجل بالغ يمتلئ بالصحة ويستطيع أن يتدبر أمره.. هكذا أشعر حيال كل إنسان يملك الفرصة لتحسين

حياته بنفسه.

وصلت إلى مواقف السيارات حيث ركنْت سيارتي.. وركبْتها وسط السماء الملبدّة بالغيوم والتي حجبَت عنا أشعة الشمس كلية.. إنها أجواء متوقعة في شهر (فبراير).. مما منحني شيئا من الاسترخاء الذهني وبعض الاكتئاب الشتوي المحبب للنفس(2) متخيلا نفسي آمنا تحت اللحاف صباح كل يوم والشوارع مزدحمة بالكامل في أوقات الذروة.. هكذا ظللت أفكر وأنا أقود سيارتي إلى أن وصلت إلى شقتي أخيرا.. حيث أخذت حماما طويلا للمزيد من الاسترخاء.. وطلبت وجبة عشاء التهمْتها أمام نسخة الستينيات الرائعة من فيلم (كوكب القردة) (Planet of the Apes).. ذلك الفيلم الذي أعتبره (فيلم الراحة) أو (Comfort Show) كما يُطلق عليه باللغة الانجليزية كناية عن الفيلم الذي تشاهده مرارا فقط لأنه يشعرك بالأمان والألفة.

وهكذا مر الوقت إلى أن حل الظلام مبكرا.. ففكرت بقراءة كتاب أو مشاهدة فيلما جديدا.. لكني وجدت مزاجي يقودني للذهاب إلى غرفة المكتب ومن ثم فتح أدراج المكتب وإخراج كل ما فيها لإعادة ترتيبها.. و.. عثرت على رزم الأوراق التي كتبْتُها بخط يدي عام 2011 ونشرتها لكم تحت مسمّى (حالات نادرة)(3).. تلك السلسلة الشهيرة التي تحمل في طياتها دفئا داخليا غريبا رغم سوداويتها.. والتي استمرّت لغاية وقتنا الحالي ولا أظنها ستتوقف يوما.. فقمت خلالها بسرْد أغرب الحالات النفسية التي مرت عليّ كطبيب نفسي طوال سنوات عملي في مستشفى الطب النفسي في دولة (الكويت).

الغريب أنني قرأت في تلك الأوراق مفردات واقتباسات لا أتذكر أنني كتبتها أصلا.. بل لا أتذكر حتى إمكانية أن أكون أنا كاتبها.. وكأنني شخص آخر.. وهذا أشعرني ببعض الألم.. لأن ملامح عقلي تغيرَت مع مرور الزمن بلا شك.. لكن ملامح قلبي ظلّت كما هي.. فهناك دوما الحنين لشيء مجهول.. والحزن

اللذيذ الذي لا تريده أن يرحل.. ولا أعرف لماذا طرأت في ذهني كلمة (السفر) التي فقدَت بريقها كثيرا في هذا الزمن.. بعد أن أصبحنا قادرين على التواصل مع المسافر في أي لحظة وطوال الوقت وكأنه يجلس بيننا.. على عكس الماضي الجميل عندما كان السفر يشكل ابتعادا حقيقيا ينخلع معه القلب بعد رحيل من تحب.. أقول هذا رغم أنني لا أفتقد أحدا لظروف سفره.. ولا علاقة للسفر بأي شيء حاليا.. لكن مجرد تغيير معاني المفردات مؤلم بالنسبة لي.

ثم أنتبه مبتسما -عن طيب خاطر- كيف أن مهنتي هذه أخذت مني الكثير.. وأتذكر كيف اخترت ابتعادي عن بيت العائلة واختياري للسكن وحيدا رغم غضب أشقائي وعدم رضا والدتي عن الأمر.. إنني أتساءل كيف سيتصرف والدي -رحمه الله- لو كان على قيد الحياة.. هل سيغضب مني كذلك؟!.

لكني أزور والدتي مرتين كل أسبوع تقريبا مذكرا إياها باستمرار أن انتقالي للسكن وحيدا لا يعني أنني بعيد عنها.. ويبدو أن والدتي وأشقائي تقبلوا الأمر الواقع في النهاية.. المعذرة.. هل أزعجْتكم بتكرار هذا الكلام؟!.. هذا أمر حتمي ولا بد منه.. لأنني أكاد ألمح قراء جُدُدا بينكم.. ولا أريدهم أن يقرؤوا إصدارات سابقة كي يفهموا ما يدور في هذا الإصدار.. فأحاول تلخيص بعض الأمور الأساسية عن حياتي الخاصة حتى تتضح لهم الصورة كاملة.

وأكاد أسمع البعض يسألني عن أقاربي.. لا أظن أنهم يحبونني كثيرا للأسف.. لأن هناك عداء لا يمكنني تفسيره لكل من يتحدث بثقافة مختلفة عن الثقافة السائدة.. كما أن اعتيادي على لبس البذلة منَحَهُم انطباعا خاطئا بأنني منبطح للغرب وفاقدا لهويتي الخليجية.. وهو اتهام غير صحيح بالطبع.. في حين يراني بعضهم على أنني مثقف متعجرف.. ولا ألومهم على نظرتهم هذه.. لأن العقل الجمعي يفعل ما هو أكثر(4).

عموما أشعر بسعادة بالغة لعزلتي هذه.. فالارتماء في حضن الجماعة قد يمنحك الدفء والأمان.. لكنه سيكلفك الكثير أيضا.. لأنك ستحمل حينها عقولهم وطباعهم مما سيؤدي في النهاية إلى ابتعادك عن نفسك.. أو بالأصح.. انطفائك.

تلاشت أفكاري في لحظة عندما سمعت رنة هاتفي في غرفة المعيشة حيث تركته.. متوقعا أن يكون هذا شقيقي الأكبر أو والدتي.. لكني في الواقع وجدت رقما غريبا غير مسجل في ذاكرة هاتفي.. فأجبت بتوجس.. لأسمع صوتا أنثويا يقول بعتاب هادئ:

- مرحبا دكتور.. أين أنت؟!.. إننا ننتظرك منذ نصف ساعة تقريبا.

سألتها عن هويتها وأخبرتها أنني لا أفهم ماذا تعني.. لتخبرني مذكّرة بنفسها:

- يا دكتور.. أنا (غدي).. ألا تذكرني؟!.. لقد قمت بزيارتك في المستشفى منذ يومين أو أكثر قليلا.. واتفقت معك على موعد جلسة للعلاج النفسي الجماعي.. نادي (ملاذ).. هل نسيت؟!.. حتى أنك منحتني رقم هاتفك الخاص لتنسيق الجلسة.

وضعت رأسي على جبيني وابتسمت بحرَج وأنا أخبرها أنني نسيت الأمر برمته بالفعل.. وأنني أعتذر بشدة على ذلك.. ولو كنت لم تفهم فحوى الكلام عزيزي القارئ.. فقد قمت بتأسيس نادٍ للعلاج النفسي الجماعي في عام 2017 حسبما أذكر.. وقمت بعمل حساب خاص له على وسيلة التواصل الاجتماعي (Twitter) -أو (X) حاليا- لاستقبال الرسائل من أي فتاة مرّت بتجربة غريبة أثّرت على حياتها وعلى حالتها النفسية وتستحق أن نستمع إليها بالفعل.. مع التركيز على عبارة (تجربة غريبة).. وإلا سيصبح اللقاء مملا تتكرر فيه المشاكل النفسية والقصص الاجتماعية المعتادة.

وقد توقف الحساب فيما بعد للأسف من إدارة (Twitter) نفسها لأسباب أجهلها.. لكن ليس قبل أن تصلني العديد من الرسائل التي قمت بقراءتها باهتمام.. لأقرر في النهاية الاجتماع بـ 3 فتيات لا تربط بينهن أي علاقة.. حيث اجتمعنا بالفعل في شقة إحداهن بناء على طلبها.. فكانت الأمسية مثيرة للغاية نشرْت خلالها كل ما سمعته منهن في كتاب حمل اسم النادي نفسه (ملاذ).

لماذا فعلْت كل هذا؟!.. لأن الفضفضة لها أهمية بالغة في تحسين الحالة النفسية للإنسان كما يعلم كل طبيب أو استشاري نفسي.. فكان تجمُّع الفتيات في نادي (ملاذ) بمثابة منطقة للراحة مارسَت فيها كل فتاة نوعا من المساج الفكري الذي يسمح لها أن تبوح بكل ما لديها.. ولهذا أيضا تنتشر بكثرة في العالم المتقدم أندية العلاج النفسي الجماعي.

وقد لاقى الجزء الأول صدى واسعا حسبما أذكر.. إلا أن بعض القراء اعترضوا بشـدة.. مُدّعين أن الكتاب كان يفترض أن يكون مجرد جزء جديد من سلسلة (حالات نادرة).. رغم أنني ذكرت وقتها أن هنـاك اختلافات جوهرية بين الاثنين.. فجميع قصص سلسلة (حالات نادرة) تجري أحداثها في مستشفى الطب النفسي أثناء ساعات عملي.. وجميعها تقريبا عبارة عن لقاء خاص جدا بيني وبين المريض لا يوجد فيه أي طرف آخر.. أما كتاب (ملاذ) -والذي تحوّل إلى سلسلة منذ هذا الجزء الذي بين يديك- فأجواؤه خارج أوقات العمل وخارج المستشفى.. حيث أحكي فيه ما سمعته من 3 فتيات على الأقل عاشت كل منهن قصة غريبة جدا وأصيبت بسببها باضطراب نفسي أثر على جودة حياتها.. كما أنني في نادي (ملاذ) لا أمارس دوري كطبيب نفسي في واقع الأمر.. بل دور الاستشاري النفسي إن أردنا الدقة(5).

أكاد ألمح ابتسامة خبيثة على وجه أحدكم وهو يتساءل:

- لماذا اجتمعْت بفتيات فقط وليس بشُبّان مثلا؟!.

حسنا.. أنا لست ذئبا بشريا أرغب بإشباع غرائزي كما قد يظن البعض.. لكن من اقترح عليّ تأسيس النادي آنذاك فتاة.. هكذا بكل بساطة.. وهي من رتّبت حضور الفتاتين الأخريين لو كنت قد قرأت الجزء الأول.. ولو لم تفعل فلا بأس.. لأنك هنا في كتاب منفصل ولا يشبه الأول سوى بالاسم وربما الأجواء.

والواقع أنه لم تكن هناك أي جلسات أخرى منذ عام 2017 وحتى أيام قليلة مضت كما ذكرت (غدي) للتو.. فقد زارتني في المستشفى وطلبت مني الإشراف على جلسة علاج نفسي جماعي جديدة مع فتاتين أخريين أيضا.. وأنني لن أندم أبدا لو فعلت ذلك.. كوني سأستمع إلى قصص جديدة ستزيد كثيرا من رصيدي المعرفي على حد قولها.

قالت (غدي) مخترقة حاجز خواطري التي مرت في ذهني بسرعة البرق:

- أرجوك.. نحن بانتظارك.

قلت مغمغما بخجل:

- حسنا.. سأرتدي ثيابي وألتقي بكن.. أرسلي العنوان أو خريطة الموقع.

ردت بعتاب أكثر حدة:

- لا يعقل أنك نسيت كل شيء يا دكتور.. لقد أخبرتك أننا لن نلتقي بك وجها لوجه.. بل سيكون اللقاء عبر أحد تطبيقات وسائل التواصل الاجتماعي.. تطبيق (Clubhouse) تحديدا.. فقد أسست غرفة مغلقة تحوي 4 أشخاص فقط.. أنا وأنت وسيّدتان أخبرْتك كيف التقيت بهما واقترحت عليهما هذا التجمع الحميم.. نحن جميعا بانتظارك لنبدأ.

قدمت لها اعتذارا صريحا لأنني نسيت كل شيء بالفعل.. ونظرت إلى الساعة المعلقة في غرفة المكتب لأجدها تجاوزت

العاشرة مساء بقليل.. لا بأس.. أخبرت (غدي) أنني سأستعد وأكون معهن بعد 10 دقائق.. فكان ما فعلته هو تنظيف أسناني أولا.. ثم إطفاء الإضاءة في كل أنحاء شقتي.. وأخيرا الذهاب إلى غرفة نومي حيث استلقيت على الفراش وسط الظلام.. وأمسكت بهاتفي لأسمح بخاصية مكبر الصوت.. وأدخل ذلك التطبيق كي نبدأ الأمسية.

هنا أعترف أن الشعور كان غريبا بعض الشيء.. وكأنني في برنامج إذاعي.. لكنها غرفة إذاعية مغلقة لا يتواجد فيها ويستمع إليها سوى 4 أشخاص.. أنا و3 فتيات كما علمنا.. وسنتعرف عليهن بعد قليل بكل تأكيد ونعرف قصة كل واحدة منهن على حدة.. ولن أشرح الآن كيف تم اللقاء بينهن كي لا أفسد عليكم بعض الأحداث.. وإنما سأترك هذا إلى الختام.. آملا أن تكون الليلة حافلة بحجم الانتظار.. لأنني بدأت أشعر بالغموض.. وأنني أطير على واحدة من السُّحب الموجودة في الخارج لأنظر إلى العالم من أعلى.. وأكتشف أشياء لا يعرفها بقية البشر.

ولم يكن شعوري بالغموض خاطئا.. لأن القصص التي استمعْت إليها ستثير انتباهكم كثيرا.. مما شجعني على أن أفرغ كل ما سمعته على الورق فيما بعد.. وأصنع من نادي العلاج النفسي الجماعي (ملاذ) سلسلة جديدة ينفصل كل جزء منها عن الآخر.. وهو ما يشبه الحال في سلسلة (حالات نادرة).

لن أتحدث أكثر.. لأن الوقت قد حان.. وسنبدأ بقصة (غدي).. مهندسة هذا التجمّع.. ثم قصة (ليال).. وأخيرا (وجن).. وسيكون لي حضور في نهاية القصص الـ 3 للتعقيب وإبداء رأيي بكل ما سمعته.. ماذا؟!.. تعلمون بذلك؟!.. المعذرة.. لقد نسيت أن شيئا كهذا لم يعد يخفى عليكم.. لنبدأ الآن إذا.. وسنلتقي لاحقا.

الدكتور (.....)

وجاء الـ .....

تحكيها (غدي)

العمر 31 سنة.

تحذير: القصة تحوي أحداثا سوداوية قد لا تناسب الجميع.

أعرف أن عنوان قصتي ناقص ومبهم.. فمن هذا الذي جاء؟!.. ومن أين جاء؟!.. وهل رحل؟!.. كلها أسئلة منطقية ومُستحَقَّة بالطبع.. لذا أعدكم بإجابات وافية ستشبع فضولكم في النهاية.. وربما هي المرة الأولى في تاريخ الأدب التي يكشف فيها المؤلف -أو المؤلفة في حالتي- عن عنوان القصة في نهايتها.. الفارق هنا أنني لست مؤلفة.. بل أسرد أحداثا عشتها بنفسي لحظة بلحظة.. ولو كانت هناك مسابقة لأغرب القصص في العالم.. فأجزم أن قصتي هي الفائزة بلا منازع.. ولا يجب هنا أن أبخس حق جرأتي وشجاعتي في تجاوز أصعب محنة عشتها في حياتي.

الفصل الأول من قصتي يبدأ باسمي.. (غدي).. اسم نادر مميز كما هو واضح.. وقد أطلقه علي أبي الحبيب.. أقرب إنسان لي في هذا العالم.. والذي كان يمتلك خلطة سحرية غريبة تسمح له بتدليلي من دون أن يفسد شخصيتي.. فقد احتواني منذ ولادتي وجعلني أعيش في قوقعة من المخمل يقوم فيها بتلبية كل طلباتي.. وأستطيع أن أقول بثقة أنني لم أواجه أي مشكلة في حياتي.. لأن أبي كان دائما في الصورة يدافع عني ويحميني.. ويتواجد في أصعب أوقاتي وأجملها.. حتى صار أقرب أصدقائي.. فكنت لا أسير إلا وأنا ممسكة بيده شاعرة بأمان لذيذ يجعلني أنام كل ليلة ملء جفني.. وأنا على ثقة أن أحدا لا يستطيع أن يمسَّني بضرر.

وهذه الأجواء التربوية المليئة بالحب والاهتمام جعلَت مني طالبة متفوقة في دراستي.. أمتلك إطلالة اجتماعية رائعة

ساهمت بخلق علاقات مميزة بزميلاتي ومعلماتي في جميع مراحلي الدراسية.. وكأنني كنت أرد الجميل لأبي على حسن معاملته واحتوائه لي.

أما أمي فلا أذكرها تقريبا للأسف.. لأنها رحلت من عالمنا في حادث سير مروع حين كنت في الـ 4 من العمر.. وهذا ما جعل أبي يزداد قربا مني لتعويضي عن حنان الأم الذي لم أذقه أبدا بطبيعة الحال.. وهنا قد يستغرب البعض كوني أتحدث عن محنة قاسية خرجت منها مؤخرا.. رغم أن كل ما ذكرته عن طفولتي ومراهقتي يوحي بالهدوء والطمأنينة الدائمة.

الواقع أن الأمر يتعلق بشقيقي الذي يكبرني سنا بأكثر من عقد من الزمان.. حيث ارتكب أبي -وباعترافه شخصيا- أخطاء كثيرة في حق شقيقي هذا وجعلته ينشأ بطريقة مختلفة تماما عني.. خاصة في فترة المراهقة التي مارس فيها الأفعال التي يمارسها أي مراهق مستهتر.. كالتدخين وإهمال الدراسة وقضاء معظم وقته في السهر مع الأصدقاء.. فكان من البديهي أن يتعثر في دراسته رغم محاولات أبي الدائمة لإصلاح الأمر.. بدءا من الكلام والنصح.. وانتهاء بالضرب والقسوة في المعاملة.. إلى درجة أنه قام بحبس شقيقي ذات مرة في غرفته عدة أيام فقط كي يجبره على استذكار دروسه.

لكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل للأسف.. ليصاب أبي باليأس ويخبره صراحة أنه لن يحاول إصلاح حاله بعد الآن.. فابتعد شقيقي أكثر وانحاز تجاه أصدقائه ولم يكمل تعليمه.. لينتهي به المطاف بوظيفة متواضعة وراتب أكثر تواضعا وهو في منتصف العشرينيات من العمر.. وبتنا لا نراه أياما طويلة عندما اختار الإقامة في شقة صديق له لا نعرف عنه شيئا.. ولا أظن أن شقيقي تعاطى المخدرات أو أدمن الخمر مثلا كما تصور لنا المسلسلات العربية كل شخص فشل في حياته الدراسية.. لكني أعلم أنه كان مدخنا شرها.. لأن رائحة السجائر ظلت تفوح منه باستمرار وإن لم أره يدخن أمامي يوما..

فتحوّل إلى شخصية نرجسية كما أخبرتني يا دكتور حين أخبرتك بمقتطفات عن قصتي(6).

ويجب أن أنوّه هنا أن معظم الأحداث التي سردْتها عن شقيقي لم أعشها أصلا.. أو عشت بعضها ولا أذكرها.. بسبب فارق السن الكبير بيننا كما ذكرت.. لكني أعلم أن أبي قام بإصلاح كل أخطائه التربوية من خلالي أنا.. هذا ما أكده لي بنفسه.. وهذا ما لاحظته بالفعل.. فقد كان قريبا مني.. لم يمارس معي العنف اللفظي أو الجسدي على الإطلاق.. وكان أقل حزما في عقابي على بعض الأخطاء التي ارتكبتها في طفولتي أو مراهقتي.

أما علاقتي بشقيقي فقد كانت دوما سطحية باردة جامدة.. ولم نكن نتحدث كثيرا أصلا في الأوقات القليلة التي يزورنا فيها.. بل كنت أشعر من نظراته أنه يكرهني في واقع الأمر.. وقد تأكدَت لي مشاعري هذه عندما حاول أن يمازحني يوما -أثناء غياب أبي- بطريقة سمِجة ثقيلة لا أظن أن أحدا يقوم بها تجاه شخصا يحبه.. وعندما بكيت.. أبدى استياءه وأخبرني أنني حساسة جدا ولا أحتمل المزاح.

إلا أن كراهيته هذه باتت واضحة صريحة مع انطلاق شرارة أحداث قصتي منذ حوالي 8 أعوام.. كنت وقتها حديثة التخرج أشغل وظيفة واعدة في إحدى شركات النفط بحكم شهادتي في الهندسة المدنية.. فكانت حياتي هادئة مستقرة.. إلى درجة أنني لم أفكر أبدا بالزواج رغم بعض العروض التي وصلتني من زملاء لي في العمل.. ولم يكن ينغص عليّ حياتي آنذاك سوى حالة أبي الصحية بعد أن أصابته أمراض الشيخوخة وتفاقمت سريعا كما يحدث مع كبار السن عادة.. إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة بعد بضعة أسابيع قضاها في المستشفى كنت أزوره خلالها يوميا وأقضي ساعات طويلة معه لحين انتهاء موعد الزيارة.. أما شقيقي فلَم أره أبدا في تلك الأيام.. رغم سؤال أبي الدائم عنه وإبلاغي له بذلك من خلال اتصالاتي

أو رسائلي النصية التي كان يرد عليها باقتضاب ويدّعي أنه مشغول جدا ولا يملك الوقت للزيارة.. مما أثار حزن أبي كثيرا.. ولا أبالغ لو قلت أن هذا قد يكون أحد أسباب تدهور حالته ووفاته.

المهم أن فترة موت أبي كانت مؤلمة جدا بالنسبة لي كما قد لا يخفى عليكم.. حيث مررت خلالها بمرحلة من الحزن الشديد الذي لم يفارقني حتى بعد انتهاء أيام العزاء.. ليصبح البيت موحشا ميتا بلا روح.

وللأسف فإنني لم أتعلم كيف أواجه مشاكلي وحدي.. مما أدى لارتكابي حماقة كبيرة جدا دفعت ثمنها باهظا.. فقد سقطْت سقوطا مدويا في أول اختبارات الحياة.. عندما زارني شقيقي في البيت بعد حوالي أسبوع من وفاة أبي.. حيث عانقني للمرة الأولى في حياته وهو يكرر مواساته لي ببعض الكلمات وأنه لن يتركني لوحدي أبدا.. فأخذت تصرفه هذا بحسن نية.. وحسبته نادما على برودة علاقته بي وابتعاده عني في السنوات الماضية.. وربما يريد أن يعوضني عن ذلك.

ثم طلب مني الجلوس ليتحدث عن القادم من حياتنا.. إذ قال بطريقة ودية:

- هناك ترتيبات كثيرة علينا القيام بها.. سأنتقل للإقامة معكِ.. فأنت شقيقتي في النهاية وعليّ الاهتمام بأمرك.. ولا شك أنكِ تعلمين كذلك أن بيتنا هذا قديم يحتاج الكثير من أعمال التجديد التي كان أبي يقوم بتأجيلها باستمرار.. وأعتقد الآن أن الوقت قد حان لذلك.. المشكلة أنني لا أملك المال.. وراتبي المتواضع لا يسمح لي بأخذ أي قروض.. دعك من أنني أسدد للبنك قسطا شهريا لسيارتي.. فلا مفر أن تأخذي قرضا بما يسمح به راتبك كي نبدأ أعمال التجديد.. ولا تنسي أنك تملكين جزءا من البيت في النهاية.. أي أن لديك حقا لن يضيع.. وسنقوم لاحقا أيضا بإجراءات حصر الورثة لتسجيل البيت باسمينا معا.. فهو ما يزال باسم والدنا رحمه الله.

مجنونة!!.. لا تفعلي ذلك أرجوكِ!!.. أنتِ حمقاء؟!!.. أكاد أسمعكم تصرخون.. لكني لم أكن أملك شيئا من ذكاء الشوارع -كما بت أطلق عليه- وقد ظننت بكل سذاجة أن شقيقي سيأخذ دور أبي بالفعل.. وسأكون تحت حمايته من الآن فصاعدا.. فوافقت مباشرة وبكل غباء للأسف.. ونفذت ما طلبه مني خلال فترة قصيرة استكملْت خلالها الأوراق المطلوبة وأخذت قرضا ضخما من البنك بضمان راتبي.. ومن ثم قمت بتحويل المبلغ لحساب شقيقي في يوم لا أنساه أبدا وسيظل مخلدا في ذاكرتي ما حييت.. لأنني علمْت لاحقا بحجم الكارثة التي اقترفتُها يومها بفعل غبائي وقلة خبرتي.

فبعد أسابيع قليلة لم يحدث فيها ما يستحق الذكر.. طلب مني شقيقي أن نجلس معا في غرفة المعيشة لمناقشة أعمال التجديد التي سيقوم بها في البيت على حد قوله.. وأنا ما زلت عند حسن نيتي وظني به.. لأجلس معه منتظرة منه أن يبدأ الحديث.. وهو ينظر إليّ وكأنه يفكر بأمر ما.. ثم قال بهدوء:

- أرغب بإزالة المخزن في السرداب وهدم جداره كي أضمّه إلى الصالة.. فهو يمتلئ بأغراض كان يحتفظ بها أبي ويرفض التخلص منها كما تعلمين.. وهناك أعمال ترميم أخرى أود القيام بها في السرداب أيضا.. لنذهب إلى هناك كي أشرح لك كل شيء.. وستتضح لك الصورة أكثر.

ابتسمت لا شعوريا لاهتمامه بأخذ رأيي.. أما بالنسبة للمخزن فهو في الواقع ليس سوى غرفة صغيرة بلا نوافذ.. مع حمام ضيق يشعرك بالاختناق فور دخوله.. وقد قام أبي بإنشائها أثناء بناء البيت منذ سنوات طويلة للعاملة المنزلية.. ثم انتبه أن الغرفة لا تصلح أبدا بسبب ضيقها.. فاستغلّها لوضع مقتنياته من مجلات وكتب وتحف قديمة.. إلخ.. ومنَح الخادمة بالمقابل غرفة أخرى نظرا لكبر حجم البيت وكثرة الغرف فيه وقلة عدد أفراد أسرتنا في نفس الوقت.

نهض شقيقي وهو يشير إليّ مبتسما أن أتبعه.. فتبعته فعليا إلى السرداب وهو يتحدث بلا توقف عن أعمال التجديد.. إلى أن وصلنا إلى غرفة المخزن.. و.. حين دخلناها.. تراجع بكل بساطة وخرج منها ليغلق علي الباب ويقفله بالمفتاح أمام نظراتي المتفاجئة!!.

عندها فقط تغيرت نبرة صوته وهو يتحدث من خلف الباب ليقول بشراسة:

- هذا مكانك الجديد.. أو لنقل عالمك الجديد.. لن تخرجي من هذه الغرفة أبدا.. ستظلين فيها طوال العمر.. وسآتي بطعامك بنفسي وأضعه لك عند الباب مرتين في اليوم.. لا تفكري بالهرب.. لأنه مستحيل تماما.. لقد قمت بالتخطيط جيدا من أجل سجنك هنا.. وبخصوص الخادمة.. فستعود إلى بلدها غدا صباحا.. لقد أنهيت كل أوراقها وقمت بكل ترتيبات سفرها من دون علمها.. أي أن أحدا لن يعرف بوجودك في هذه الغرفة سواي.. حتى نافذة الحمام الصغيرة أغلقْتها وختمْتها من الخارج بطبقة سميكة من الأسمنت منذ يومين ومن دون علمك أيضا.. فلَن يسمع أحد صراخك مهما فعلتِ.. ستجدين صندوقا متوسط الحجم فوق كومة المجلات يحتوي على كل ما تحتاجينه من ثياب مع بعض المستلزمات الأخرى الضرورية.. وداعا.

كان كلامه مروعا رغم أنه قاله ببساطة شديدة مما يشي باستعداده الذهني والنفسي لكل شيء.. أما أنا فظللت صامتة مبهوتة غير مستوعبة للموقف ولا أعرف ما أقول.. ربما ظننت للحظة أنه يمازحني رغم أنه لم يفعل ذلك يوما.. لكنه أكمل بصوته الذي يفيض شراسة وجشع:

- لقد كنت حريصا أن أشغلك عن أخذ هاتفك معك.. وقد نجحْت في ذلك لحسن الحظ.. سآخذه وأذهب به إلى صديق لي يستطيع أن يفك رمز الدخول والولوج إلى معلوماته..

وسأتواصل مع صديقاتك وزملاء العمل من خلال وسائل التواصل الاجتماعي لأنهي علاقتك بهم تدريجيا.. سيظن الجميع أن الذي يتواصل معهم هو أنتِ.. وسآخذ إثباتاتك الشخصية من حقيبتك وآتِ بفتاة تشبه ملامحك قليلا كي تنتحل شخصيتك لتقوم بالتنازل عن حقك في البيت لصالحي.. هذه الأمور تخدع موظفي الحكومة بسهولة.. إذ لن يخطر ببالهم أبدا أنني جئت بمن تنتحل شخصيتك.

هنا بدأت أستوعب الموقف.. وبدأت دقات قلبي تتسارع.. لأهرع إلى الباب وأنا أقول بذعر:

- لا يمكنك أن تفعل هذا.. كيف تخدعني بهذه الطريقة؟!.. ثم أن غيابي سيلفت انتباه الناس بلا شك.

رد ساخرا:

- لن تغيبي عن أحد.. سيظن الجميع أن من يرد عليهم في وسائل التواصل الاجتماعي هو أنتِ.. وحتى لو أثار الأمر شكوك أحدهم.. فالشرطة لن تبحث عنك طالما أتواصل مع جميع معارفك عبر هاتفك على أنني أنتِ.. كما أنك لن تذهبي إلى العمل ابتداء من الغد بالطبع.. مما يعني فصلك بعد فترة لتغيبك.. ستكونين معزولة تماما عن العالم ولن يقف معك أحد طالما أنت تحت مسؤوليتي كوني شقيقك.. ولن أفكر أبدا بجلب عاملة منزلية جديدة خوفا أن تكشف الأمر وتبلغ الشرطة.. سأتدبر أمر تنظيف البيت وسأعيش على الطعام الجاهز.. اطمئني.. سأكون بخير.

قال عبارته الأخيرة وهو يقهقه ضاحكا.. وأنا ما زلت أستمع إليه خلف الباب بوجه مكفهر وحلق متحشرج.. أحاول أن أقول شيئا.. لكني غمغمت بكلمات غير مفهومة.. ليقول هو:

- سأحاول استثمار المال الذي أخذته منك كي أنهي مسلسل الفشل الذي عشته في حياتي بسبب قسوة أبي وسوء معاملته لي.. وصدقيني أتمنى أن أقتلك كي ينتهي كل

شيء من هذه اللحظة.. لكني -بصراحة- لا أملك الجرأة لارتكاب جريمة قتل.. دعكِ من أن هذا قد يضعني في شبهة جنائية.. لذا آمل أن تقومي أنت بتلك المهمة بالنيابة عني.. وأن تقتلي نفسك بنفسك.. وسأقوم بدفعك دفعا إلى ذلك بشتى الوسائل.. حينها سأخبر الشرطة أنك أقدمت على الانتحار بسبب الاكتئاب الشديد الذي أصابك بعد وفاة أبي.. وهذا أفضل سيناريو.. وأنا لا أعتقد أنك ستعيشين في غرفة المخزن طويلا قبل أن تلجئي إلى الانتحار فعليا.. فلن تحتملي الحياة في غرفة ضيقة كهذه طوال العمر.. لقد فكرت بكل شيء.. حتى بحرمانك من الأكل والشرب إلى أن تموتي.. لكن هذا أشبه بجريمة القتل كذلك.. وسيكشف الطب الشرعي كل شيء بسهولة بسبب الهزال الذي سيصيبك.. الأفضل أن تموتي منتحرة.

- لماذا؟!.. لماذا؟!.

خرج السؤال من لساني بصوت ملتاع وقد اغرورقت الدموع في عيني.. ليقول شقيقي ببغض شديد كان يخفيه منذ زمن طويل كما هو واضح:

- إنني أكرهك.. منذ طفولتك وأنا أكرهك.. أبي كان يراك أفضل.. يراك أذكى.. يراك فرصة ثانية علّها تعوضه عن الفرصة الأولى الفاشلة (أنا).. بل وأخبرني مرارا أنه يتمنى لو كنت أحمل صفاتك.. وليته اكتفى بذلك.. فقد كان يتباهى أمام أقاربنا ومعارفنا أنه فخور بك.. ويصفني أنا بالابن الفاشل الذي لا مستقبل له.

سكت وهو يلهث.. أم هو صوت لهاثي أنا؟!.. إنه لهاثي بالفعل.. لقد انتبهت إلى ذلك وأنا أسمعه يكمل:

- بالمناسبة.. انظري إلى فوق الباب مباشرة.. هناك كاميرا صغيرة وضعتها لأراقب تحركاتك طوال الوقت.. وهي متصلة بتطبيق قمت بتحميله في هاتفي.. وحين آتيك بطعامك.. لن

أفتح الباب إلا بعد أن أتأكد بواسطة الكاميرا أنك جالسة على الأرض وفي وضعية لا تسمح لك بمباغتتي بأي شكل.. أما لو أتلفتِ الكاميرا.. أو فكرت بالهرب.. أو حتى تسببتِ بأي ضجة على أمل أن يسمعك أحد.. سيكون عقابك مرعبا لن يخطر ببالك أبدا.. دعك من أن أحدا لن يسمعك هنا أصلا فلا تتعبي نفسك.. أريدك أن تكوني كلبة مطيعة لا حس لك.

كانت هذه كلماته الأخيرة.. إذ سمعت صوت خطواته المبتعدة وقد تركني وسط ذهولي وتلك الآلام تلتهم معدتي بسبب توتري الشديد.. هل يعقل أنني سجينة في بيتي نفسه؟!.. وفي هذا المخزن؟!.. أنظر حولي والذهول لم يفارقني.. لأرى كومة ضخمة من الكتب والمجلات والتحف والصناديق وكل شيء قديم احتفظ به أبي -رحمه الله- وأخذ نصف مساحة الغرفة الضيقة أصلا.. حيث لم يعد هناك مكان سوى للجلوس وربما النوم.. ثم أنظر إلى الحمام القذر الذي لم نستخدمه منذ زمن طويل.. فيرفض عقلي الانصياع لهذا الواقع المفاجئ.. وأتجه إلى الباب لأطرقه بقبضتي بقوة وأنا أطلب من شقيقي أن يفتح لي.. أضرب الباب وأضربه بلا توقف.. لأسمع خطوات سريعة تنزل من الدرَج.. وأحدهم يضع المفتاح في القفل.

إنه شقيقي وهو يزمجر غاضبا.. وللحظة كدت أرى الدخان يخرج من فمه بعد أن أطلق شتائم بذيئة جدا.. ثم دفعني بقسوة حتى وقعت أرضا على مجموعة من الخردوات التي أصابت ظهري بآلام شديدة.. لينقض علي ويضربني ضربا مبرحا بكلتا يديه وكأنه يضرب رجلا.. إنها المرة الأولى التي أتعرض فيها للضرب.. و:

- قلت لك ألا تسببي أي متاعب.. إنني جاد في كلامي ولا أمزح.

قالها وهو يلهث ويمسح على قبضته اليمنى التي أصيبت بسبب قوة ضرباته.. قبل أن يتركني محطمة مكسورة تملأ

الرضوض جسدي.. ويصفق الباب خلفه بقوة.. ثم أسمع صوت المفتاح وهو يدور في القفل.. يا إلهي.. إنني مسجونة في بيتي.. كيف يحدث هذا؟!.. هل يعقل أن تتغير حياتي بلحظة واحدة؟!.. أنني وحيدة ضعيفة لا حول لي ولا قوة.. خاضعة تماما لشقيقي.. فبدأت دموعي تنهمر تدريجيا.. لأبكي بحرارة وقد بدأت أشعر بالألم في أجزاء كثيرة من جسدي بعد كل هذا الضرب.

بالمناسبة.. لقد قرأت ذات مرة في رواية قديمة أن الليلة الأولى في السجن هي الأصعب.. وأن عددا ليس بالقليل من المساجين يصابون بالانهيار العصبي في ليلتهم الأولى.. خاصة هؤلاء المحكوم عليهم بالسجن لسنوات طويلة.. وبالنسبة لي فقد كان الأمر أصعب وأقسى وأسوأ من وضع المساجين.. لأنني مسجونة ظلما.. مسجونة طوال العمر.. وفي بيتي.. وبطريقة مفاجئة يغلب عليها طابع الغدر.. والسجّان هو شقيقي الذي غدر بي مستغلا سذاجتي.. ولستم بحاجة إلى الذكاء لإدراك أن ليلتي الأولى في هذا السجن كانت مرعبة مضطربة جدا قضيتها في نوم متقطع أصحو منه فجأة بسبب الأفكار التي تغزو عقلي الباطن.. أو لأن قدمي اصطدمت بالجدار.. أو يدي التي ارتطمت بصندوق.. لأظل لحظات لا أعرف أين أنا.. ثم أتذكر ما حدث فأصاب بالرعب.. لأنهار باكية.. إلخ.

في اليوم التالي.. سمعت صوت شقيقي وهو يقترب من الباب ليطلب مني الابتعاد والجلوس بوضعية محددة كي يأتي بطعامي كونه لا يريدني أن أموت جوعا.. ولا يريد أي شبهة تعذيب بدني أو نفسي لو قررت الانتحار يوما كما علمنا.. فامتثلت له.. ورأيته يدخل وهو يحمل صينية عليها وجبة طعام طلبها لي من الخارج.. حيث وضعها على الأرض وعاد ليغلق الباب من دون أن ينطق بأي كلمة.. مما جسّد الرعب في داخلي أكثر.. لكني رغم ذلك.. جلست آكل كالمسعورة.. فقد انتبهت إلى أنني لم آكل شيئا منذ ظهر أمس.

إنني لم أمر بموقف كهذا أبدا من قبل.. رغم أنني قرأت كثيرا عن قصص حبس الفتيات في بيت العائلة.. وفي أكثر من دولة عربية وأجنبية لأسباب مختلفة.. إنها قصة تتكرر دوما.. ومجرد بحث سريع في الشبكة العنكبوتية سيجعلكم تقرأون عشرات القصص الشبيهة(7).. إلا أنني ظللت أقول لنفسي أن هذه القصص تحدث للآخرين.. ولم أفكر أبدا أنها من الممكن أن تحدث لي.

ولم أجد أي مخرج بعد هذه الصدمات المتتالية سوى التوسل لشقيقي أن يرحمني على أن أنفذ له كل طلباته.. وهذا ما قمت به بالفعل حين جاء بوجبة العشاء.. إذ أخبرته أنني سأتنازل بنفسي عن البيت وعن المبلغ الذي أخذه مني.. لكنه هز رأسه نفيا مؤكدا أنه لن يثق بي مهما أقسمْت له.. فلو صدّق كلامي وأخذني إلى الجهة الحكومية المختصة لإنجاز المعاملة.. قد أصرخ وأطلب النجدة هناك.. والواقع أنني أنا نفسي لا أعرف إن كنت سألتزم بقسمي لو عثرت على طريقة أخرج فيها من هذا المأزق.

كنت أعيش كابوسا شعرت وكأنني لن أستيقظ منه أبدا.. حيث ساءت حالتي في الأيام التالية التي توقفْت فيها عن الصراخ أو الاعتراض.. خاصة بعد أن ضربني شقيقي مرة ثانية وثالثة وتسبب لي بكدمات كثيرة في أماكن متفرقة من جسدي وعلى وجهي.. فأهملت نظافتي الشخصية.. ولم أغتسل أو أستحم.. وبت أشعر أن رائحتي أصبحت مقززة.. إلا أن هذا آخر ما قد تفكر فيه فتاة تمر بظروفي.. كما كنت أتساءل عن حال العالم الذي انقطعْت تماما عنه مؤخرا وقد بدا بعيدا جدا.. وكأنني أعيش على سطح القمر أو على جزيرة منعزلة تماما عن البشر.

لقد فكرت بالهرب أكثر من مرة.. وفحصت الغرفة والحمام كثيرا.. لكني لم أجد أي منفذ.. وهذا متوقع.. إنه بيتنا في النهاية وأعرف كل مخارجه ومنافذه.. دعكم من أن شقيقي

ملأ الباب بالأقفال فيما بعد.. فهناك الترباس والسلسلة الثقيلة المرتبطة بقفل حديدي كبير.. بالإضافة إلى قفل الباب نفسه.. أي أنه حول الغرفة إلى زنزانة حقيقية.. حتى أنني تساءلت للحظة.. ماذا لو جرى شيئا لشقيقي ومات مثلا.. من سينقذني من سجني هذا؟!.. سأموت جوعا وعطشا قبل أن يكتشف أحدهم موته.. سؤال مخيف.. وإجابته مرعبة.

كم مكثت في هذا السجن؟!.. ربما شهرين أو أكثر وأنا ما زلت أرفض الاستسلام.. فأحيانا أبحث عن وسيلة للهرب.. وأحيانا أخرى أتوسل لشقيقي أن يرحمني وأكاد أقبل قدميه.. لكنه ظل يرفض بحزم وهو يؤكد أنني مصدر الخطر الأوحد عليه بعد أن نفذ مخططه كاملا وأتى فعليا بفتاة انتحلت شخصيتي وقامت بدوري المتعلق بإجراءات الورث.. أي أنني -في نظر القانون- تنازلت عن البيت الذي أصبح ملكا له وحده.. ولو سمح لي بالخروج فإنني لن أسكت مهما أكدّت له عكس ذلك.. وسيكون من السهل حينها إثبات قيامه بالتزوير بعد اللجوء إلى القضاء واستقدام الشهود وزملاء العمل الذين سيؤكدون اختفائي الغريب والمفاجئ.. بالإضافة إلى كاميرات المراقبة في الجهات الحكومية التي ستكشف الحقيقة وتفضح شبيهتي هذه.. أي أنه محقًا في حذره كحال كل مجرم.

وهذا ما جعلني ألجأ إلى استخدام الذكاء مع بعض القوة أملا في الخروج من هذه الورطة.. فقد طرأت في ذهني خطة بسيطة شعرت أن عليّ تجربتها وإلا سأظل أتساءل طوال الوقت عن مدى إمكانية نجاحها.. إذ قمت بإتلاف الكاميرا التي يراقبني شقيقي من خلالها.. ووضعت بقربي بعض الكتب الثقيلة التي تأكدت أنني أستطيع أن أحملها.. ثم جلست أترقب.. هل سينتبه الآن للتلف الذي أصاب الكاميرا؟!.. أم عندما يأتيني بوجبة الغداء ويتأكد قبلها -كما ظل يفعل طوال فترة سجني- أنني جالسة على الأرض وفي وضعية لا تسمح لي بالقيام بأي تصرف مفاجئ قد يتسبب بهروبي؟!.

بعد أكثر من ساعة.. انتبه لإتلاف الكاميرا.. فقد سمعت وقع أقدام سريعة تقترب.. لأقف وأحمل الكتب الثقيلة في يدي مترقبة لحظة الانقضاض.. وما إن فتح الباب.. حتى فوجئ بي شقيقي وأنا أندفع بالكتب تجاهه بكل قوتي لأصطدم به.. فاختل توازنه ووقع على الأرض حيث وقعت كل الكتب عليه.. و.. انطلقت هاربة من غرفة المخزن إلى الدرَج الذي يؤدي إلى الدور الأرضي ومن ثم إلى ساحة البيت الداخلية وأخيرا إلى الشارع.. سأخرج وأصرخ وأطلب المساعدة من الجيران.. أو ربما أطرق باب بيت الجيران.. لا أعلم.. المهم الهرب أولا.

لقد كنت على وشك الابتسام وأنا أسمع شتائم شقيقي وهو يبعد عن نفسه الكتب ويتوعد بي صارخا.. إلا أن ابتسامتي تلاشت حين فوجئت أن الباب المؤدي إلى الدور الأرضي مقفل.. هناك باب آخر في الناحية الأخرى من السرداب.. هل سأملك الوقت لأتجه إليه؟!.. التفت بسرعة لكني وجدت شقيقي وقد استعاد توازنه سريعا ونهض كي يلحق بي.. إنه يسد عليّ الطريق وينظر إليّ بحقد.. وأمام يأسي.. اندفعْت صارخة لكي أصطدم به وأتجاوزه وأهرب.. إلا أن الأمر كان شبيها بسيارة صالون صغيرة تصطدم بشاحنة ضخمة لإتلافها.. وقد كنت أنا سيارة الصالون الصغيرة هنا طبعا.. فقد لكمني شقيقي مفرغا كل غضبه قبل أن أصطدم به.. عندها خارت قواي ووقعت أرضا.. ثم حملني وكأنه يحمل دمية.. ليرميني في سجني المعتاد.. غرفة المخزن.. وقام بغلق الباب وهو يتوعدني بعقاب سيجعلني لا أفكر أبدا بالهرب مرة أخرى.

انهرت باكية متألمة بسبب المجهود الذهني والبدني الذي بذلته في محاولة هروبي الفاشلة.. ومن اللكمة التي تلقيتها في وجهي وتركت كدمة سوداء لا نراها عادة إلا على وجوه الملاكمين في الأفلام.. والمشاعر المتضاربة تعصف بي.. كيف سيكون حالي في هذا السجن بعد سنة؟!.. أو بعد عدة سنوات؟!.. إن شقيقي ما زال يراهن على أنني سأقدم على

قتل نفسي عندما أخضع للأمر الواقع وأدرك أن لا مفر لي من هذا السجن أبدا.. فقد أخبرني بذلك مرارا.. وربما يقتلني هو في المستقبل بعد أن يطمئن إلى أن خطته سارت كما يريد وأنني أرفض الانتحار مثلا.. أي أنني لن أخرج من هذا المكان في كل الأحوال سوى إلى قبري.. يا إلهي.. هذا مرعب.. مرعب!!.

لم أكن أعلم أن الأسوأ لم يأتِ بعد.. وأن شقيقي يمتلك عقلا شيطانيا حاقدا لا تملكه حتى أجهزة الاستخبارات في الدول القمعية.. إذ دخل الغرفة ظهر اليوم التالي وأنا ما زلت أتألم من قوة لكمَته وقد شعرت أن رأسي تأثر بسببها لأن تركيزي لم يكن على ما يرام.. و.. من دون أن ينطق بكلمة.. اقترب مني ليفتح فمي قسرا ويضع فيه قطعة قماش.. ثم أغلق فمي بشريط لاصق قوي.. ولم يكتف بذلك.. بل قام أيضا بتكبيل يديّ وقدميّ بالشريط اللاصق.. وأخيرا لف جسدي بعباءة سوداء أحاطها بالشريط اللاصق ذاته.. أي أنني أصبحت مكبّلة تماما عاجزة عن الحركة.. ترى.. هل غير رأيه وينوي قتلي الآن؟!.. فكل ما يفعله يوحي بذلك.

- ممم مممم ممممم.

لم يكترث لتلك الهمهمات التي خرجت مني بيأس.. فقد حملني ببساطة وأنا أحاول أن أسترق النظر عبر العباءة لأعرف إلى أين يأخذني.. والواقع أنني كنت أتمنى لو تعرضت للدفن وأنا على قيد الحياة بدلا مما فعله بي.. رغم أن الدفن حيا أسوأ أنواع الموت وأكثرها رعبا بالنسبة لي.. فقد صعد بي شقيقي إلى سطح البيت حيث شعرت فجأة بالنور وحرارة الشمس تضرب جسمي المغطى تحت العباءة.. ثم رماني هناك وهو يقول بصوت لاهث:

- سيكون هذا عقابك على محاولة هروبك.

تركني بعدها مكبّلة هكذا وأنا أسمع صوت خطواته

المبتعدة.. ولم يتطلب الأمر سوى دقائق معدودة لأعرف نوع العقاب الذي يقصده.. فنحن في شهر (يوليو) على ما أظن.. ودرجة الحرارة في هذا الوقت تتجاوز الـ 50 درجة مئوية كما هو الحال في معظم أجزاء منطقة الخليج.. وأنا ملقاة هنا على سطح البيت وأشعة الشمس القاسية تضرب جسدي بقسوة.. أي أنني أتعرض الآن للشواء على نار هااادئة.. وما زاد الأمر سوءا تلك العباءة السوداء التي تمتص الحرارة بطبيعة الحال والأشرطة اللاصقة التي تكبلني.. فبدأ العرق يتصبب مني ليبلل جسدي بأكمله في وقت قياسي.. والإنهاك يزيد ويزيد.. ولساني جف بالكامل بسبب قطعة القماش المدسوسة في فمي.

يجب أن أعترف هنا -وبكل ثقة- أنها أسوأ ساعات عمري وأطولها على الإطلاق.. وهي التي قضت على كل ما تبقى من مقاومتي ورغبتي في الفرار.. لأن العقاب كان شيطانيا جعلني أتمنى أن أظل محبوسة في غرفة المخزن إلى الأبد على أن أكون في هذا الجحيم ولو لساعة واحدة.. فغرفة المخزن مكيفة على الأقل.. آكل وأشرب فيها ولا أتعرض خلالها لهذا الشواء البطيء.. نعم.. هكذا يفكر المرء حين يرى ما هو أسوأ من السجن.. الاحتراق ببطء.. وجفاف الحلق.. وكأنني تائهة في الصحراء.. لا.. حتى التائه في الصحراء سيكون أفضل حالا مني.. على الأقل سيتمكن من التخلص من بعض ثيابه والاختباء تحت صخرة مثلا كي يحتمي بظلالها.. أما أنا فلم تكن تلك الرفاهية متاحة لي.. لقد حاولت أن أطلق بعض الهمهمات الضعيفة على أن يسمعني أحد من الجيران.. لكن لم يسمعها أحد للأسف.. حتى أنني توقفت عن ذلك بعد أن نفدت كل طاقتي.

لقد ظللت على هذا الموضع يومين متتاليين تقريبا وبلا أكل أو شرب.. فخارت قواي وتعرضت للإغماء أكثر من مرة.. قبل أن يعود شقيقي مساء اليوم الثاني بعد أن غابت الشمس.. إذ

شعرت به وهو يحملني ويسير بي بصمت.. ليدخل البيت وأشعر أخيرا بتيار الهواء البارد الذي أعاد إليّ جزءا من روحي رغم العطش والجوع الشديدين.. إلى أن وصلنا إلى سجني الدائم في غرفة المخزن.

رماني شقيقي على الأرض بقسوة وبدأ يفك الشريط اللاصق ليخرجني من العباءة وهو يتأفف من رائحة العرق والغبار التي أحاطت بي.. أما أنا فلَم أقاوم أو أفعل أي شيء.. بعد أن جعلني شقيقي أتمنى سجني هذا وأفرح لعودتي إليه.. وهذا ليس كلامي.. بل كلامه هو.. وقد كان محقا للأسف.. ثم أضاف قائلا بصوت آلي يخلو من المشاعر:

- عليك بالاستحمام.. إن رائحتك لا تُطاق.. وسآتيك بالطعام والشراب بعد قليل.. لكن عليك أن تتذكري دوما أن تكوني مطيعة.. وأن تتأقلمي مع حياتك الجديدة.. أنتِ في هذا المكان طوال عمرك ولن تخرجي منه إلا لقبرك.

قالها وخرج من الغرفة.. ثم عاد بعد نصف ساعة وهو يحمل كيسا يحتوي على وجبة من أحد مطاعم الوجبات السريعة ليضعه أمامي.. ففتحت الكيس ورحت آكل وأشرب بطريقة جنونية.. خاصة تلك الكولا التي شعرت بها وهي تملأ عروقي بالبرودة.. عالمة أن إرادتي هذه المرة انكسرت فعليا.. وأنني على الأرجح لن أفكّر بالهرب أبدا.. علما بأن شقيقي فعل شيئا جديدا لضمان عدم هروبي.. إذ اكتشفت أنه -وأثناء وجودي في سطح البيت- قام بتثبيت حلقة معدنية قوية في الجدار تتصل بها سلسلة ثقيلة من جهة.. وفي الجهة الأخرى من السلسلة يدي بالطبع.. فقد قام بتقييدي كالحيوانات وهو يقول بصرامة:

- هذه السلسلة ستظل مربوطة في يدك.. لكنها طويلة تمتد لعدة أمتار.. سيمكّنك هذا من الذهاب إلى الحمام.. وقد اشتريت أيضا كاميرا جديدة.. عوضا عن تلك التي قمتِ بإتلافها.

ثم أردف قائلا وهو يشير إلى مكان الكاميرا فوق الباب:

- إنني أسيطر على كل تحركاتك كما ترين.. ولو فكرت بالإتيان بأي حماقات.. سيكون عقابك أسوأ بكثير من المرة الماضية.. تأكدي من ذلك.. إنني أمضي في حياتي بهدوء وقد بدأت مشروعا واعدا بفضل أموالك.. فلا أريد منكِ أي منغصات.. عليك أن تتذكري أن البيت ملكي.. والمال ملكي.. والأفضل لك البقاء في سجنك هذا إلى الأبد.. أو -وأقولها للمرة المائة- أن تختاري الانتحار لترتاحي وأرتاح أنا منك.

حسنا.. لن أتحدث أكثر عن سجني في هذه الغرفة.. لأنني قضيت فيه حوالي 7 سنوات!!.. نعم.. 7 سنوات لم أفكر خلالها بالهرب إطلاقا بعد أن انكسرت مقاومتي.. وقد بدأت أقتنع أنه من العسير جدا أن أبدأ حياتي من جديد بعد هذه المأساة كوني استدنت من البنك مبلغا كبيرا منحته لشقيقي ولم يسدده بكل تأكيد.. وبكل تأكيد أيضا قام البنك بمقاضاتي وكسب القضية.. وخسرت وظيفتي بسبب تغيبي.. ويعلم الله ما قاله شقيقي لصديقاتي وزملاء العمل عبر وسائل التواصل الاجتماعي.. كل هذه أسباب أكثر من كافية لأستسلم.

لكني بالمقابل ظللت أحاول الحفاظ على عقلي على الأقل.. فكنت أقضي بعض الوقت في قراءة الكتب والمجلات المتراكمة.. والتي يعود عمرها إلى سنوات طويلة ماضية ظن خلالها الناس أن مشاكلهم هي الأسوأ.. وأن جيلهم هو الأسوأ حظا.. كيف عرفت أنها 7 سنوات في ظل وجودي بغرفة مغلقة بلا شبابيك؟!.. شقيقي ظل يخبرني بمرور الوقت طوال السنوات الماضية.. ربما لأنه أراد إغراقي في اليأس ودفعي إلى الانتحار الذي لم أقدم عليه لحسن الحظ وإن كنت قريبة جدا منه.

ولا أنسى بعض الأحداث المروعة التي تعرضْت لها خلال تلك الفترة.. كأن ينساني شقيقي أحيانا لمدة يوم أو يومين كاملين بلا طعام أو ماء.. أو عندما انقطع التيار الكهربائي ذات مرة عن السرداب لأكثر من أسبوع بسبب مس كهربائي.. عشت

خلالها على ضوء شموع منحني إياها شقيقي.. حيث قمت بالاستحمام مرات كثيرة في تلك الأيام كمحاولة لتجنب حرارة الغرفة.. إلى أن سمح له وقته بجلب فنّي كهربائي كي يصلح المَس.

وأعتقد أن شقيقي تعمّد ترك الكهرباء مقطوعة طوال تلك الفترة.. كي لا أعرف بموعد قدوم فنّي الكهرباء هذا.. خوفا من أن أصرخ وألفت انتباهه.. حتى أنني فكرت بحرق المكان وحرق نفسي معه بواسطة الشموع.. أو أنهي حياتي من خلال بعض الآلات الحادة التي عثرت عليها في السرداب.. أو حتى الإضراب عن الطعام كما يفعل السجناء.. لكني ظللت أتراجع في اللحظات الأخيرة لأسباب أنا نفسي أجهلها.. ربما لأنني كنت ميتة قبل أن أموت.. وكنت أخشى شقيقي بشدة وبطريقة مرَضِية.. وقد صاحب هذا الخوف حقدا شديدا جعلني أتمنى سقوط نيزك ليمحو البشرية من على الأرض فقط كي يموت هو.. حتى وإن تسبب هذا بموتي أيضا.

لقد خسرت كل شيء.. ولم يعد هناك ما يمكنني أن أخسره سوى عقلي الذي أقاتل للاحتفاظ به.. ولا أعرف إن كان يجب أن ألوم أبي الذي لم يضع في الحسبان يوما كهذا سأحتاج فيه إلى بعض خبرات الحياة التي لم أحصل عليها.. أو ألوم نفسي لأنني تصرفت مع شقيقي بتلك السذاجة وسمحت له بالاستيلاء على كل شيء.. كل هذا جعل مزاجي يقترب من مزاج الموتى لو كان للموتى مزاج.

كيف نجوت؟!.. لا شك أن هذا السؤال يتبادر إلى أذهان الجميع الآن.. لأن مسار القصة واضح.. فخطة شقيقي نجحت.. وأنا مسجونة طوال السنوات الماضية ومتجهة إلى حتفي.. إنها فقط مسألة وقت.. فما الذي حدث وتسبب بتغيير مجرى القصة لأنجو بحياتي وأكون بينكم اليوم؟!.

يجب أن أعود إلى ذلك اليوم خلال فترة سجني بالطبع.. كنت وقتها مستلقية على الأرض أنظر إلى سقف الغرفة الذي

حفظته وحفظت كل تشققاته.. عندما انتبهْت فجأة إلى ذلك الصوت الخافت الذي لم أنتبه له في البداية.. إلى أن تكرر بلا توقف.. حتى وصل إلى مسامعي وأثار فضولي.. فنهضت من مكاني ورحت أبحث عن مصدر الصوت بفضول.. لأرى شيئا يخرج بين الكتب والصناديق.. إنه مجرد فأر منزلي صغير جدا كان سيصيبني بالرعب لو ظهر لي قبل تلك الأحداث.

لا أعرف سر الغموض الذي يحيط بالفأر.. إنه كائن غريب تحيط به عشرات القصص والأساطير.. ولا أنسى ما قرأته -بعد خروجي من هذه المِحنة- عن الحادثة الغريبة التي جرت في (الهند).. فقد التقطت كاميرا مراقبة بمحل مجوهرات شهير لحظة سرقة عقد ألماس باهض الثمن بواسطة جرذ(8).. وقد خمّنت السلطات أن هناك من درّب الجرذ على التسلل إلى المحل وسرقة العقد.. إلا أنها لم تتمكن أبدا من الوصول إلى من يقف خلف حادثة السرقة هذه(9).. نعم.. إن الفأر كائن غريب غامض.. وهناك أيضا الحادثة التي جرت منذ سنوات قليلة في مدينة (هوميرت) (Hommert) في (هولندا) حيث أقدمت مئات الفئران على الانتحار قفزا من أحد الجسور.. وبلغ عددهم أكثر من 300 فأر من دون أي سبب واضح(10).

بعيدا عن خواطري هذه.. ظللت أنظر إلى الفأر للحظة.. هل يبدو لطيفا بالفعل؟!.. أم أنني أراه كذلك لأنني لم ألتق بأي كائن حي مسالم منذ 7 سنوات؟!.. على اعتبار أنني لا أرى شقيقي كائنا حيا مسالما.. وربما لم أعد أراه كائنا حيا أصلا؟!.. هنا فقط انتبهت إلى أنني تحولت إلى فتاة لا أعرفها.. إذ وجدت نفسي لا شعوريا أنهض تجاه بقايا طعام الغداء الذي لم يأخذه شقيقي بعد كي يلقيه في القمامة كما هي العادة.. فأخذت قطعة دجاج صغيرة ومددت يدي إلى الفأر ووضعتها أمامه مباشرة.. إنه يقترب منها ويشمها بحذر للحظات.. ثم يأكلها.. وهذا ما شجعني لآخذ قطعة أخرى وأخرى.. إلى أن تمكنت من كسب ثقته.

لكن.. هناك شيئا غير عادي يتعلق بهذا الفأر.. إنه يسير بخطوات بطيئة غير مفهومة.. على عكس الفئران التي عُرِفت بسرعتها وقوة انعكاساتها.. لماذا؟!.. وكأنه يعاني من مشكلة بإحدى سيقانه.. هل يعاني عيبا خلقيا؟!.. لا أعرف.. وقد أشعرني هذا بالأسف الشديد تجاهه.. لأمد يدي إليه.. وأحمله متجاهلة كل الأوساخ التي تغطيه.. فقمت بغسله حيث تطلب الأمر دقائق قليلة كي يبدو أنظف وأفضل حالا.. لينام بعد ذلك على مسافة قريبة مني.. وقد كانت المرة الأولى في حياتي التي شعرت خلالها أنني مسؤولة عن روح.. عن كائن حي ضعيف.. وفي ظروف قاهرة مستحيلة كتلك التي أعيشها.

ظللت إلى جانب الفأر في اليومين التاليين وحالته تزداد سوءا بلا سبب واضح.. وقد كنت أخفيه حين أسمع وقع أقدام شقيقي آتيا ليجلب لي الطعام كماهي العادة.. ماذا عن كاميرا المراقبة؟!.. لا أعتقد أن شقيقي بات يراقبني كما كان يفعل في الماضي.. فقد اطمأن إلى استسلامي طوال السنوات الماضية وقلّت حدة رقابته علي.. حتى أنه أزال السلسلة الحديدية التي ربطها حول معصمي منذ مدة طويلة.. لكي لا يكون هناك أي أثر قد تتركه على يدي ويثير شكوك الشرطة لو مت يوما.. أما لو كان مستمرا بمراقبتي عبر الكاميرا.. فلا أظن أن شيئا كهذا سيلفت انتباهه.. لكني ظللت أخفي عنه الفأر لسبب أنا نفسي أجهله.

المهم أن حالة الفأر باتت أسوأ بكثير في اليوم الثالث أو الرابع.. وبدا وكأنه على وشك الموت.. فقد راح يتألم ويتأوه طوال الوقت ولم يعد يرغب بالأكل أو الشرب.. لأنهار باكية وأنا عاجزة عن مساعدته.. إلى أن حدث شيء مريب جعلني أتوقف عن البكاء فجأة.. شيء لا يمكن أن أصدقه لو لم أرَه بنفسي.. هذا ليس ممكنا ولم أسمع به من قبل.. كيف يحدث ذلك؟!.. أفكاري تنهمر في ذهني وجسدي كله يرتجف وعيناي تتسعان رعبا وأنا أرى الفأر يموت ويلفظ أنفاسه بطريقة بشعة جدا..

غريبة جدا لا يمكن أن تخطر ببال أحد.. وأنا هنا لن أذكر لكم ما حدث بالضبط.. فالأفضل أن أتطرق إلى التفاصيل لاحقا من أجل السياق الدرامي لقصتي.

قمت بعدها بانتزاع مجموعة أوراق من إحدى المجلات المتناثرة.. ولففتها حول الفأر الميت بحذر.. ثم وضعته في كيس صغير أستخدمه كسلة مهملات.. حيث يأخذه شقيقي بين حين وآخر ويستبدله بكيس جديد.. أفعل كل هذا وأنا أنظر حولي بقلق شديد سأشرح أسبابه لاحقا أيضا.

جلست في الأيام التالية لا أفعل سوى التفكير بحادثة الفأر والتي قد تبدو تافهة للوهلة الأولى.. لكنها ليست كذلك بالنسبة لي.. لأنها حملت في طياتها الأمل الوحيد والمعجزة التي قد تتسبب بإنقاذي من براثن شقيقي.. رغم أن الفكرة تبدو مستحيلة للوهلة الأولى.. لكن السجين عادة ما يتمسك بأي أمل مهما كان ضئيلا.. حتى لو قام بحفر خندقا بملعقة لكي يهرب.. ولا يخفى على أحد العديد من قصص الهروب من السجن على مر التاريخ.. وبوسائل قد تبدو مستحيلة أو بسيطة جدا قد تستغرق سنوات.. والأمر لا يختلف هنا.. فحادثة الفأر كانت بمثابة هدية من السماء.. هدية لا يمكن ألا أستغلها.. وطوق النجاة الذي أنتظره.. أعلم أن كلامي غير مفهوم.. لكني أرجوكم الصبر وسيتضح لكم كل شيء بعد قليل.

اختمرت الفكرة في عقلي بعد تفكير طويل استمرت عدة أيام.. وقررت وضعها قيد التنفيذ لأن الانتظار لن يكون في صالحي لأسباب سأشرحها لاحقا أيضا.. كل ما عليّ فعله حاليا هو انتظار مجيء شقيقي بالطعام لأبدأ التنفيذ.. فكانت هذه ساعات انتظار صعبة للغاية لأن شمعة الأمل اشتعلت في داخلي لأول مرة منذ سنوات.. وبت أنتظر إلى أن حان موعد العشاء في ذلك اليوم حيث دخل شقيقي وبيده كيس وضعه أمامي من دون أي كلمة.. عندها تنحنحت وأنا أقول بانكسار لم أمثّله:

- أريد التحدث معك بأمر شديد الأهمية.

نظر إليّ باحتقار وعدم اقتناع.. فأردفت قائلة:

- لا أعرف كيف تتدبر أمر تنظيف البيت.. فلا أظنك جلبت خادمة.

قال بلا مبالاة:

- أنظف البيت بنفسي بين حين وآخر.. وأحيانا أستأجر خادمة تعمل بالساعة من دون السماح لها بالنزول إلى السرداب كي لا تعلم بوجودك.

قلت بقلب يخفق بعنف خوفا أن يرفض اقتراحي:

- لماذا لا تخرجني من الغرفة مرة أو مرتين أسبوعيا كي أقوم بتنظيف البيت؟!.. على الأقل هذا أرحم بكثير من السجن في هذه الغرفة الضيقة.. وستكسب بذلك خادمة بلا راتب.. وحتى تطمئن.. تستطيع أن تقفل كل الأبواب أثناء قيامي بعمليات التنظيف التي لن أقوم بها إلا أثناء وجودك.. لقد استسلمت لمصيري ولكل ما فعلته بي.. أعلم أنك تفضّل موتي بدلا من اقتراحي هذا.. لكني وبكل صراحة لا أملك الشجاعة لأنهي حياتي بنفسي -كما تتمنى- مهما ساءت حالتي.. لم أجرؤ على فعلها طوال السنوات الماضية كما ترى.. ولا أظن أنني سأجرؤ على ذلك في المستقبل.

نظر إليّ وكأنه لم يتوقع أبدا اقتراحا كهذا.. لكنه اكتفى بالصمت وخرج من الغرفة لأسمع صوت الأقفال وخطواته أثناء ابتعاده كالعادة.. لأظل قلقة جدا خوفا ألا يوافق على طلبي مما سيفسد خطتي قبل أن تبدأ.. ولا أعلم إن كانت خطتي ستنجح أصلا حتى لو تهيأت لها كل الظروف.. عموما هي فرصتي الوحيدة مهما بدت ضئيلة.. ولن أتوقف.. علي أن أجرب.. ولو فشلت.. ستكون هذه محاولة هروب ثانية فاشلة.. بعد المحاولة القديمة التي مرت عليها سنوات وقد عوقبت بسببها عقابا مرعبا كما علمتم.

كررت طلبي في اليوم التالي عندما جاء شقيقي بوجبة الغداء.. وفعلت الأمر ذاته في اليوم الثاني والثالث محاولة التحدث معه بلغة العقل وبما يصب في مصلحته على أمل يمتثل لطلبي.. و.. اقتنع بكلامي أخيرا.. حيث فوجئت به يفتح باب المخزن في وقت متأخر من الليل ويوقظني بطريقة فظة.. لينظر إليّ نظرة طويلة وهو يقول بقسوة خافتة:

- ستخرجين من الغرفة مرتين في الأسبوع كي تقومي بتنظيف البيت.. سأكون متواجدا ولن أتركك تغيبين عن أنظاري لحظة واحدة.. ولو فكرت بارتكاب أي حماقة.. صدقيني ستتمنين الموت ولن تناليه.

إنه يكرهني أكثر من الماضي.. لأنني بمظهري المزري هذا.. أبدو مثلما يشعر حيال نفسه إن كنتم تفهمون ما أعني.. لا تنسوا أنني طوال السنوات الماضية ظللت أقص شعري بنفسي وبلا اهتمام حتى بدا منظري مضحكا.. كما أنني نحلت كثيرا وأصبحت قليلة الاستحمام كريهة الرائحة للأسف.. رغم أوامر شقيقي المستمرة أن أهتم بنفسي أكثر لأنه لا يطيق رائحتي عندما يدخل سجني.. إلا أنه تجاهل ذلك مع مرور الوقت.. المهم أنني أطرقت برأسي موافقة وبطريقة مذلة للأسف وأنا أشكره على تفضله عليّ بذلك.. والسعادة بدأت تغمر قلبي لأن الجزء الأول من خطتي نجح.. وتبقّى الجزء الأصعب من الخطة.. والذي سأعلم خلاله ما إذا كنت ذكية للغاية.. أو حمقاء جدا.

في اليوم التالي.. شعرت أخيرا باستنشاق هواء الحرية قياسا لما كنت عليه في السنوات الماضية.. فقد كانت هذه المرة الأولى -منذ 7 سنوات- التي أرى فيها شيئا غير جدران غرفة المخزن.. حتى بدا البيت وكأنه حديقة غنّاء رغم أنه لم يكن على قدر كبير من النظافة والرعاية مما يظهر إهمال شقيقي.. وسأتجاوز هنا دموعي التي ذرفتها وأنا أقوم بعملية التنظيف وأرى أشياء وثيابا ومقتنيات نسيت أنها موجودة في البيت أصلا.. وسأتجاوز أيضا حرصي الشديد على ألا يرى شقيقي أي

تأثر على ملامحي.. وسأكتفي بالتركيز فقط على ما حدث بعد ذلك.

استغرقت عملية التنظيف الأولى لكل غرف البيت بضع ساعات.. وكانت شاقة جدا بدنيا ونفسيا.. خاصة مع مراقبة شقيقي الذي لم يتركني لحظة واحدة.. فكان يبقى معي في كل غرفة إلى أن أنتهي من تنظيفها.. محاولا إشغال نفسه بهاتفه الذي بدا لي متطورا للغاية.. لا تنسوا أنها المرة الأولى التي أرى فيها هاتفا ذكيا منذ سنوات.. كما كنت أطيل النظر إلى نفسي في كل مرآة أقف أمامها.. إذ لم يكن هناك أي مرايا في سجني سوى واحدة صغيرة في الحمام بالكاد أرى فيها وجهي.. وأول ما طرأ في ذهني وقتها أنني لم أكن قد رأيت أي جثة في حياتي.. وهذه أول جثة أراها.. المفارقة أنها جثتي.. فقد كنت أبدو كالموتى بالفعل مع ذلك الشحوب الشديد الذي أبدو عليه.. وخسارتي للكثير من وزني.. رغم أنني لم أكن ممتلئة الجسد أصلا.. وربما فقدْت كل مخزوني من فيتامين (د) الذي يتكون في الجسم بواسطة الشمس.. وأنا لم أرَ الشمس منذ سنوات.. لهذا ظللت أشعر بالإرهاق طوال عملية التنظيف.. لا بأس.. هناك علاج لكل شيء.. علي أن أنجو أولا.. ولولا ذلك الفأر الصغير.. لما انتعش الأمل في داخلي وطرأت في عقلي تلك الفكرة التي لم أتحدث عنها بعد.

وبعد أن انتهيت من عملي.. رجوْت شقيقي أن يسمح لي بالجلوس أمام شاشة التلفاز قليلا.. على أن أذهب إلى الفراش حالما أراد هو النوم أو الخروج.. ليسمح لي بذلك ببرود وتعالٍ شديدين وكأنه يقدم لي خدمة العمر.. فأعددت لنفسي طعاما بسيطا في المطبخ التهمته بهدوء وأنا أشاهد -بانبهار شديد- ما تبثه إحدى قنوات التلفاز رغم أنه مجرد مسلسل أجنبي.. لكنه بدا متقدما جدا بالنسبة لي.. وكأنه يُبث من المستقبل.. في حين يجلس شقيقي أمام هاتفه وينظر إليّ بين لحظة وأخرى ليتأكد أنني لا أنوي ارتكاب أية حماقة.

أعادني شقيقي إلى سجني بعد أكثر من ساعة.. حيث جلست أفكر بلا توقف في خطتي التي لا أعلم مدى واقعيتها وإمكانية نجاحها أصلا.. فالأيام وحدها ستجيب على هذا السؤال.. ولو كانت غرفة المخزن أكبر قليلا.. لمشيتها طولا وعرضا لأفرغ توتري.. لأنني نفذت خطتي كاملة من دون أن ألفت انتباه شقيقي.. ولم أعد أملك سوى انتظار النتيجة.

ظلّت الأمور على طبيعتها ولم يتغير أي شيء خلال الأيام القليلة التالية.. حتى بدأت أصاب باليأس وظننت أنني حمقاء وأن عليّ أن أعود إلى الواقع.. فلا يمكن أبدا أن يحدث ما ظننته ممكنا.. ولكن.. بعد أكثر من أسبوع.. وفي ذلك اليوم تحديدا.. لم يأتِ شقيقي بطعامي كما هي العادة.. إنه ينشغل عني أحيانا كما ذكرت سابقا.. إلا أن الأمل اشتعل في قلبي هذه المرة أن غيابه -ربما- يكون بسبب نجاح خطتي.. وقد سيطر عليّ التفكير والقلق ونسيت الجوع رغم أنني لم آكل شيئا يومها.. عموما سنرى إن كانت ستتحقق المعجزة.. أم أن زمن المعجزات قد ولّى كما يقال دوما.

في اليوم الذي يليه.. وصلت مشاعر الجوع إلى ذروتها رغم قلقي الشديد.. إلى أن فوجئت بشقيقي يفتح الباب ليضع أمامي كيسا من الخبز وبعض المعلبات مع مفتاحها.. وقد كان يبدو شديد الإرهاق.. ملامحه مكفهرة شاحبة.. فسألته محاولة أن أخفي فضولي ولهفتي:

- ما بك؟!.

رد بصوت خافت:

- لست على ما يرام.. أشعر أنني مريض.

يا إلهي.. هل هذه صدفة؟!.. إنني لم أره في هذه الحالة أبدا من قبل.. هل نجحت خطتي؟!.. علي أن أتصرف بذكاء بعيدا عن مشاعري تجاهه.. إذ نهضت من مكاني واقتربت منه بحنان مصطنع لأضع يدي على جبينه وهو ما نفعله دوما لو أخبرنا

أحدهم أنه مريض.. لكنه أمسك بيدي وأبعدها عنه بقسوة وهو يخبرني بوجه شاحب للغاية أنه -ربما- مصاب بالحمى وأن هذا عموما ليس من شأني.. وكأنه يريد تذكيري بمكانتي في حياته.. فتجاهلت ردة فعله عن عمد.. وسألته بحنان مصطنع أيضا إن كان يرغب بشيء.. ليغمغم بكلمات مضطربة ويخبرني أنه يشعر بالغثيان والصداع مع بعض الآلام غير المفهومة في جسده.. وهناك أيضا الإسهال الشديد.. ثم.. تقيأ أمامي فجأة.. نعم.. من دون سابق إنذار.. فشعرت بتقزز مع فرحة شديدة حاولت أن أخفيها.. وأعتقد أنها المرة الأولى في التاريخ التي يشعر فيها أحدهم بالفرحة والتقزز معا.

في الأسبوعين التاليين.. ساءت حالة شقيقي كثيرا.. إلى درجة أنه توقف عن جلب الطعام لي في اليومين الأخيرين.. فعشت خلالهما على بقايا الطعام الذي تركه لي آخر مرة ومع صيام شديد للغاية.. وقد بدأت أشعر بالذعر أنه قد يتعرض للأذى وينساني هنا.. وهو ما لم أحسب حسابه.. مما أصابني بحالة من الهلع والحق يقال.. لكنه جاء إلى سجني أخيرا وقد بدا شديد الإنهاك والضعف.. ليخبرني أن باستطاعتي الخروج كي أعد لنفسي شيئا آكله.. فهو يعجز عن الاعتناء بي في الوقت الحالي لسوء صحته.. بالطبع.. لن يصبح للمال أي أهمية في حياتك لو كانت صحتك متدهورة.. وأنا على يقين أن صحة شقيقي في أسوأ حال ممكن لو كان هذا بفضل خطتي التي أعتقد أنها في طريقها إلى النجاح.. خاصة وأنه أخبرني بذهابه إلى أكثر من طبيب.. ولم يعرف أحد أي سبب واضح لحالته المتدهورة.. وحتى لو عرفوا.. لا أظن أن بإمكانهم مساعدته.

هل قمت باستغلال الظروف؟!.. هل هربت من البيت؟!.. هل ذهبت إلى مخفر الشرطة؟!.. طبعا لا.. أريد أن أنتقم شر انتقام أولا.. والأهم من ذلك أريد أن أسترجع أموالي والبيت وحياتي بأكملها التي سرقها مني شقيقي طوال السنوات الماضية.. فتقديم أي شكوى الآن قد لا يكون في صالحي.. لأنني لا

أملك أي دليل لما فعله بي في السنوات الماضية.. ستكون كلمتي مقابل كلمته.. وهو ما لن يكون كافيا لإدانته.. كما أن اتهامه بالتزوير والإتيان بفتاة تنتحل شخصيتي لتسجيل البيت باسمه سيمر بمراحل قانونية وقضائية ستستغرق وقتا طويلا.. الأفضل أن أتصرف بصورة طبيعية.. فشقيقي على الأرجح سيفقد حياته قبل أن أتقدم بشكوى ضده أصلا.. وسأرث ماله -الذي هو مالي في الأصل- مع البيت بأكمله.

كنت أقول إنني قررت البقاء وعدم الهروب.. فكانت هذه الليلة الأولى التي أبيت فيها في غرفتي منذ سنوات.. لأن شقيقي لم يعد يكترث لعودتي إلى سجني وهو في حالته التي ازدادت سوءا بسرعة متوقّعة.. إلى أن حانت لحظة الحقيقة عندما راح يصرخ بجنون جعلني أستيقظ من النوم.. لأستيقظ وأنا في حالة رعب قبل أن أستوعب سريعا مكان نومي.. وأهرع إلى غرفة شقيقي وسط صراخه الذي لم يتوقف وكأن أحدهم يقتلع بمطواة جزءا من أحشائه.

فتحت باب غرفته.. لأجده يتلوى ألما وكأنه يحترق في الجحيم.. وما إن رآني.. حتى راح يرجوني وهو يصرخ بجنون متسائلا عما يحدث له.. ويرجوني أن أتصل بالإسعاف فورا وقد نسي كل ما يتعلق بما فعله بي في السنوات الماضية.

لقد حان الوقت إذا.. كل الدلائل تؤكد ذلك.. عندها فقط مشيت بخطوات هادئة مقتربة من فراشه.. لأقول بنبرة انتصار وتشفّ واضحين:

- من الواضح أن انتقامي في طريقه إلى النجاح.. هذا جزء يسير جدا مما فعلته بي.. لقد دمرْت حياتي بأكملها.. بعد أن سلبتني حريتي وأموالي ونصيبي من البيت.. ولم تكتفِ بذلك.. بل عذبتني وضربتني.. وكنت مستمرا في هذا بلا رحمة.. لكني الآن سأسترجع كل شيء لأنني الوريثة الوحيدة لك.. فالسُّلطات ستصنِّف موتك على أنه حادث عابر.. ولن يخطر ببال أحد أبدا أنني قتلتك بنفسي وبطريقة بشعة للغاية.. صدقني

ستموت ميتة بشعة جدا.. وسأستمتع بكل لحظة منها.. تفو.

بصقت عليه فعليا.. فأثار هذا جنونه أكثر وأطلق شتيمة قذرة وهو يسألني عما فعلته به.. لأجيب ببرود وبصوت مرتفع كي يسمعني جيدا:

- لقد أرسلتني إلى الجحيم.. لكني عدت منه.. والآن أنا أرسلك إليه.. الفارق أنك لن تعود منه أبدا.

ثم ضحكت بطريقة مستفزة وأنا أخبره أنه سيفهم ما يحدث له بعد دقائق.. مؤكدة له أنه لم يرَ الأسوأ بعد.. وقد أنهيت كلامي قائلة ببغض:

- سيتمزق جسدك إرَبا إرَبا.. بعد أن مزقت روحي إرَبا إرَبا.. نحن متعادلان.. لقد جعلتني أفقد جميع غرائزي سوى غريزة البقاء.. وهي التي جعلتني أقضي عليك.

يحدث كل هذا وصراخه يتضاعف ويتضاعف.. والألم يكاد يجعله يفقد عقله.. في حين أقف على مقربة منه مستمتعة بكل لحظة ومتذكّرة أنني لم أرَ في حياتي أحدا يتعذب بهذه الطريقة.. سينتهي كل شيء قريبا جدا.. وربما بعد لحظات.. فالدماء بدأت تملأ ثيابه الداخلية.. ربما هي فتحة الشرج التي تنزف بغزارة.. أرى هذا واضحا بعد أن تلوث بنطال البيجامة بالكامل باللون الأحمر.. لتتعالى صرخات شقيقي إلى درجة أنه عض لسانه حتى أدماه وكاد أن يقطعه بأسنانه.. ثم.. شرايينه تبرز على رقبته.. والدماء تخرج من أجزاء عديدة أخرى من جسده في منظر مرعب لمن يراه.. إلا أنه أثار استمتاعي ولم يخفْني أبدا بعد أن دمّرني الوعي.. لأن الوعي يُفترض أن يأتي بالتدريج.. لكنه جاءني دفعة واحدة.. ومن سخرية الأقدار أنني كنت دوما في مدرستي أبحث عن أكثر زميلاتي ضعفا وهشاشة.. وأجعلها مشروع إنسان عليّ إنقاذه ومساعدته.. لكن هذه المرة.. مشروعي في الحياة هو إنقاذ نفسي وإنقاذ روحي من كل ما تعرضت له طوال السنوات السابقة..

ويبدو أنني في طريقي إلى ذلك.. لأن صرخات شقيقي بدأت تتلاشى.. وحركته بدأت تهمد.. وأنينه يتباطأ ويخف تدريجيا إلى أن انقطع تماما.. وإلى الأبد.

من الأحمق الذي قال أن الانتقام غير مجد ولا يشفي الغليل؟!.. فلا يوجد أجمل من الانتقام.. لقد حصلت عليه بهدية من السماء.. واستمتعت به لحظة بلحظة.. ولو كانت هناك وسيلة لإعادة شقيقي إلى الحياة كي يتعذب بذات الطريقة لفعلتها بكل سرور.

أعلم أن الجميع يتساءل -وقد وصلت القصة إلى ذروتها- عن ماهية هذا الانتقام الغريب الذي مزق شقيقي بهذه الطريقة وجعل الدماء تخرج من كل أنحاء جسده تقريبا.. حسنا.. أعتقد أن الوقت مناسب الآن للإفصاح عن كل شيء.. وأرجو أن تحتمل أعصابكم ما سأقوله.

لقد كانت البداية بقصة الفأر المنزلي الصغير الذي تسلل إلى غرفة المخزن أثناء سجني.. ولا يهمنا هنا كيف وصل إليّ.. لأن الفئران تجد طريقها دوما بين شقوق الجدران والممرات الضيقة.. المهم ما كان يحمله معه.. أو في داخله إن صح التعبير.

لقد ذكرت لكم أن الفأر بدا لي غير طبيعي وكأنه مريض يعاني شيئا ما.. وأنني لم أفهم أبدا ما يعانيه.. إلا في لحظة وفاته عندما رأيته يتأوه ويتقلب بعنف وكأن أحدهم وضع في داخله جمرة.. لأرى بعد ذلك أبشع منظر قد يتخيله إنسان.. وأكرر هنا أنني أنصحك ألا تكمل القصة لو كنت من ذوي المشاعر المرهفة.. أما أنا فقد ماتت مشاعري ولم أعد أخاف شيئا.

لقد رأيت الفأر يهتز ويتلوى ألما.. حتى ظننته للحظة أنثى وهي حامل وعلى وشك الإنجاب.. لكن لا.. الأمر بدا مختلفا.. إنها ليست لحظة ولادة بكل تأكيد.. فهناك أشياء كثيرة تريد

الخروج من أماكن متفرقة من جسده الصغير.. لأصاب بحالة من الهلع عندما رأيت عشرات العناكب الصغيرة تخرج من جسد الفأر.. وجميعها تقريبا تترك خطوطا دامية حمراء وهي تسير مبتعدة عنه بعد أن فقس بيضها بداخله كما هو واضح.. يحدث كل هذا أمام عينيّ المذعورتين.. نعم.. أعلم أنه مشهد مقزز جدا.. وهذا ما جعلني أنتفض وأتراجع إلى الحمام محاولة الابتعاد -قدر الإمكان- عن هذا المشهد المرعب والمقزز.

ثم بدأت أستوعب ما حدث عندما تداركت نفسي وبدأت أفكر بطريقة عقلانية.. فالمشهد واضح لا يحتاج إلى تفسير.. يبدو أن ذلك الفأر البائس تعرّض لقرصة من عنكبوت.. وقد أودع فيه الأخير بيضه باحثا عن بيئة حاضنة.. والآن فقست البيوض وخرجت العناكب الصغيرة ممزقة جسد الفأر حتى الموت.. الغريب أن العناكب لا تفعل ذلك كما علمت لاحقا.. بل هي خرافة يتداولها الناس ويؤمن بها البعض رغم إثبات كذبها علميا(11).. لكن هذا ما حدث أمامي.. فكيف تحول الخيال إلى حقيقة؟!.

لم أجد أي تفسير سوى أن العنكبوت الذي قرص الفأر من فصيلة جديدة متحوّرة غير معروفة.. وهو ليس بالأمر الغريب.. فالعلماء يكتشفون دوما كائنات حية جديدة.. وتحديدا في عالم الحشرات وعالم المفصليات الذي تأتي منه العناكب ويأتي منه النمل كذلك(12).. وقد قرأت منذ مدة عن اكتشاف العلماء لفصيلة من العناكب ترضع صغارها الحليب وتقدمه لهم منذ الصغر.. علما بأن الحليب ليس ضروريا لنمو صغارها أصلا.. لكنه يقيها من الأمراض(13).. فلن تكون مفاجأة كبيرة لو كان هناك نوع جديد من العناكب لم يكتشف بعد وقد اكتشفته أنا.. نوع يلدغ الثدييات ويترك بيضه يسري في دمها باحثا عن بيئة حاضنة إلى أن يحين موعد الفقس.. إنه التفسير الوحيد ولا أجد غيره.

لقد ظللت أنظر إلى العناكب الصغيرة الملوثة بدماء الفأر البائس باشمئزاز وفضول مجتمعين.. والفكرة تتمحور في ذهني ببطء شديد.. أن أجعل شقيقي يلقى نفس المصير.. نفس مصير الفأر.. وقد كانت الفكرة مستحيلة وغبية كما تبدو للوهلة الأولى.. لكن -وكما قلت سابقا- السجين قد يفعل أي شيء للحصول على الأمل بالنجاة.. وهذا ما جعلني أمسك بورقة مزقتها من إحدى المجلات وأبدأ بقتل العناكب واحدا تلو الآخر.. لأبقي على عدد منها وضعتهم جميعا في علبة وجدتها بين الأغراض في المخزن.. حيث حرصت على إطعامهم.. غير عالمة إن كان طعامي مناسبا لهم.. لكني وجدته كذلك لحسن الحظ.. ثم.. انتظرت أسبوعين أو أكثر وأنا لا أعلم إلى متى عليّ الانتظار كي تكبر هذه العناكب وتتزاوج.. غير عالمة أيا منها الذكور والإناث.. هذا إذا لم يكن كل ما احتفظت به من جنس واحد فقط.. لكن لا أظن أن حظي سيكون بهذا السوء.

وقد خبأت العناكب الصغيرة التي أبقيت على حياتها بين طيات ثيابي في صندوق صغير صنعته خصيصا لذلك.. على أن أحررها أثناء تنظيفي لغرفة شقيقي كي تسرح وتمرح هناك.. من المرجح أن شقيقي سينتبه إلى بعضٍ منها ويقتلها.. لكني كنت أتمنى أن تفلت أنثى واحدة على الأقل كي تقوم بقرصه من دون أن يشعر(14).. لتضع بيضها فيه مثلما فعلت الأم مع ذلك الفأر.. ويبدو أن هذا ما حدث.. فالإنسان والفئران من الثدييات.. وقد كنت أقول لنفسي أن ما يسري على الفأر ربما يسري على الإنسان أيضا.

لقد كنت أشعر بسعادة بالغة لذكائي وأنا أرى صغار العناكب تخرج من فم شقيقي وأذنيه ومن فتحة الشرج بعد أن فقست بيوضها.. فأصبحت وكأنها رصاصات تقتله وتمزقه تمزيقا.. الفارق أنها كانت تخرج من جسده بدلا من دخولها إليه كما تفعل الرصاصات.. تماما كما حدث مع ذلك الفأر البائس.

أعلم أنها خطة كانت تحتاج إلى الكثير من الحظ والتوفيق

وبعض الخيال.. أعلم أنها خطة شبه يائسة لم أكن لأفكر بها لولا بحثي عن أي بصيص أمل.. إلا أنها نجحت رغم ذلك.. وحين تأكدْت أن شقيقي مات.. اتصلت بالشرطة مباشرة.. فكانت المرة الأولى التي أتحدث فيها مع أحدهم منذ سنوات طويلة.. مما جعلني أصاب بحالة من الجنون وعدم الثبات النفسي.. لأتحدث وأنا أصرخ حتى آلمني رأسي.. بسبب تراكمات الضغوط العصبية التي مررت بها.

كان الحادث غريبا بشعا مروعا كما وصفه رجال الشرطة وهم يرون طريقة موت شقيقي والعناكب الموجودة في كل مكان في الغرفة.. وقد تطلب الأمر أيضا إحضار أحد خبراء الحشرات وإحدى شركات التخلص من الكائنات الضارة.. حيث أكد خبير الحشرات أن العناكب لا تضع بيضها في جسد الإنسان أبدا.. إلا أن هذا النوع قد يكون سلالة جديدة لم يكتشفها العلم بعد.. أو ربما فرّ من مختبر لا نعلم عنه شيئا.. وهذا جعل غرفة شقيقي تتحول إلى مسرح للمسؤولين الذين تأكدوا من جمع كل هذه العناكب وإعدامها.. فلا نعلم ما سيحدث لو تركناها على قيد الحياة.. أو أرسلناها لمختبر ما مثلا.. هذا ما قاله أحد رجال الشرطة أيضا.

أما أنا فقد التزمت الصمت التام ولم أتهم شقيقي بأي شيء.. بل قمت فقط بالتعاون مع رجال الشرطة للانتهاء من كل الإجراءات القانونية التي عقبت وفاة شقيقي.. وقد ذكر تقرير الشرطة أن حالة الوفاة نتيجة حادث منزلي تسببت به فصيلة غير معروفة من العناكب.. إلا أن هذا التقرير لم ينتقل أبدا إلى وسائل الإعلام كما أكد لي أحد رجال الشرطة.. مدعيا أن أمرا كهذا قد يتسبب بحالة من الذعر بين الناس.

وبعد أن هدأت الأمور وأُقفل ملف القضية.. سارعت بإنهاء إجراءات الورث كوني وريثة شقيقي الوحيدة.. لأقضي بعدها شهورا طويلة من أجل إعادة حياتي إلى ما كانت عليه.. فأعدت بناء علاقاتي مع صديقاتي وأقاربي.. وأخبرتهم أنني اخترت

العزلة التامة بعد موت أبي كونهم يعرفون مدى تعلقي به.. واعتذرت للجميع إن كنت قد خاطبتهم بكلمات غير لائقة قبل انقطاعي التام عنهم.. لأنني لا أعلم ما فعله شقيقي حين أخذ هاتفي وتواصل مع الجميع على أنه أنا.

وقد تمكنت أيضا من الالتحاق بوظيفة جديدة.. واسترجعت أموالي من شقيقي التي استغلها لافتتاح كراج للسيارات حقق أرباحا ممتازة في سنوات سجني.. حتى فاقت المبلغ الذي أخذه مني.. وأنهيت مشكلتي مع البنك الذي كان قد أقام دعوى قضائية ضدي بسبب عدم التسديد.. كما ورثت البيت وأصبح ملكي بالكامل.. لتستقر حياتي أخيرا وأعيش حياة طبيعية ناجحة أملك فيها مستقبلي وأديره بنفسي.. مستقبلي الذي ظننت أنني خسرته بسبب شقيقي الحقير.

نعم كنت محظوظة.. لكن هناك الكثير من المحظوظين الحمقى الذين تظهر الفرص أمامهم ولا يستغلونها.. فعلى الإنسان ألا ييأس أبدا وأن يستخدم عقله باستمرار.. لأن الحل أحيانا قد يأتيه على طبق من ذهب.. وعلى صورة عنكبوت من سلالة جديدة.

كم مر على تلك الأحداث؟!.. حوالي سنة.. هل تجاوزت ما حدث؟!.. لا أظن أن أي إنسان قادر على تجاوز مِحنة كهذه.. وربما أحتاج إلى 10 سنوات في قبري علّني أنسى!!.. إنني أفكر بشقيقي بين وقت وآخر.. وأخشى أن يعود لينتقم رغم أنه مات وشبع موتا.. ثم أطرح أوهامي هذه جانبا.. وأتذكر أنني تخلصت من هذا الوغد.. وعلي الاستعداد لمواجهة أي أوغاد قادمين قد أصادفهم في حياتي.. وبكل تأكيد لا أشعر بذرّة ندم على ما فعلته.. فقد كنت شديدة الضعف وأنا أراه يدمّر حياتي ويقتل روحي.. ويحرص على تدمير ما تبقى مني.. بل ويستهزئ بآلامي.. كل هذا وأنا أنتظر منه أن يشفق عليّ يوما.. أما اليوم.. وبعد أن أنقذت نفسي بنفسي.. لا تتوقعوا أن أتعاطف معه أو أشعر بالندم لفعلتي.. لأن أقذر وأسوأ عنف

بوجهة نظري هو العنف الأسري.. فهو يأتي ممن يفترض أن يكون مصدر الأمان.. وهذا يصيب الضحية بالخذلان وفقدان الثقة والانكسار ويجعلها تخوض حربا داخلية لا يمكن أن يفهمها أحد.. عنف الأسرة يختلف.. لأنه قد يبقى في داخلك إلى الأبد.

ختاما.. يجب أن أؤكد أنني فخورة جدا بنفسي.. ولو كنت لست أنا.. لتمنيت أن أكون أنا!!.. بل وأشعر أحيانا وكأنني ورقة (Ace) التي تمثل رقم (1) في لعب الورق (الكوتشينة).. فهو أقل الأرقام لكنه أقواها في نفس الوقت(15).. كما ينتابني شعور غريب بالشجاعة.. ولا أبالغ لو قلت أنّني لا أخشى شيئا على الإطلاق.. فما تعرضت له غيّرني إلى الأبد.. وأعلم الآن أنّ عليّ الاعتماد على نفسي وعدم التفكير بالزواج أبدا.. فلقب (زوجة) قد ينتهي بكلمة (طالق).. لكن لقب (دكتورة) لا يستطيع أحد أخذه مني.. نعم.. إنني أفكر جديا باستكمال دراستي أيضا كي تتسع آفاقي أكثر وأكثر.. ولو كانت الكثرة تغلب الشجاعة.. أو القوي يهزم الضعيف.. فأنا واثقة أن الذكاء يهزم الكثرة والأقوياء معا.. لأنني استخدمت عقلي فقط وتمكنت من النجاة.

أفكر بكل هذا وأنا أرى بعض العناكب التي أخفيتها في المخزن قبل اتصالي في الشرطة.. وقد حرصت فيما بعد على وضعها في بيت زجاجي ملائم لبيئتها.. حيث أنظر إليها بحب وامتنان.. فهذه السلالة المجهولة هي التي أنقذت حياتي.. ولا يعلم أحد بوجودها عندي.. أعلم أن هناك مخاطرة في ذلك.. لكني لم أعد أخشى شيئا.. دعكم من أنني ما زلت أتساءل عن المصدر.. عن أنثى العنكبوت التي قامت بقرص الفأر البائس وأودعت فيه بيضها.. أين هي يا ترى؟!.. وهل هناك غيرها؟!.. كم عددهم؟!.. لن أعرف أبدا للأسف.

وأعتقد أن عنوان قصتي بات واضحا الآن.. فقد تغيرت حياتي كلها حين دخل ذلك الفأر البائس إلى سجني.. بعد أن تعرض

لقرصة من عنكبوت ينتمي إلى سلالة جديدة ربما لم تكتشف بعد.. مما مهد لي الطريق كي أنتقم من شقيقي.. الآن فقط أستطيع إكمال عنوان القصة بعد أن سردْت لكم أحداثها وانكشفت لكم أسرارها.. قصتي التي أطلقت عليها اسم: (وجاء العنكبوت)!!.

عيون تراقب

تحكيها (ليال)

العمر27 سنة.

يستخدم الناس كلمة (فوبيا)(16) كثيرا.. رغم أن مخاوفهم غالبا ما تكون عادية ولا ترتقي إلى تلك اللفظة الشهيرة التي تُجسّد في واقع الأمر كل معاني الخوف عند الإنسان.. أقول هذا الكلام لأنني شخصيا عرفت الـ (فوبيا) الحقيقية جيدا وعشتها لحظة بلحظة حين كنت في الـ 17 من العمر وفي السنة الأخيرة من دراستي الثانوية.. أتحدث هنا عن عام 2013 مع بدايات ثورة الهواتف الذكية ووسائل التواصل الاجتماعي.

كنت وقتها في سن المراهقة أعيش حياة هادئة جميلة وأحلام المستقبل تملأ عقلي.. مما جعلني طالبة متفوقة في جميع مراحلي الدراسية.. خاصة مرحلة الثانوية العامة المفصلية التي سيقوم عليها مستقبلي كله بطبيعة الحال.. فكنت أبذل قصارى جهدي للتخرج بمعدل مرتفع من أجل الحصول على بعثة للدراسة في الخارج.. وهو ما لا تسمح به بعض العوائل.. لكن والديّ كانا يمنحاني قدرا كبيرا من الحرية بسبب ثقتهما الكبيرة بتربيتهما لي.. حيث تعلمت منهما حب العمل والسعي خلف الطموح.. وأن كل الأشياء التي أصنعها في حياتي سيكون تأثيرها عليّ أنا قبل أي شخص آخر.. كما ساعد على حسن تربيتي تلك الأجواء الصحية التي عشتها وسط أشقائي الـ 3 الذين أحاطوني جميعا بحبهم وحنانهم طوال الوقت كوني شقيقتهم الوحيدة.

ولا أنسى هنا الجانب المتعلق بأنوثتي.. فقد كنت حريصة على أناقتي وأبدي اهتماما شديدا بنفسي.. إلا أنني -بالمقابل- كنت حذرة جدا من ناحية العلاقات العاطفية.. فاقتصرْت تلك المرحلة على مجرد علاقة أو علاقتين هاتفيتين لا ترتقيان أبدا لأصف أيا منهما بكلمة علاقة أصلا.

ولو استعرضْت حياتي في تلك الأيام السعيدة.. فلَن أستذكر منها سوى حادثة واحدة سوداء أصابت اتزاني بالخلل وجعلتْني في حالة توتر مستمر.. إنها الحادثة التي تسببت بوجودي بينكم لأسردها لكم كاملة كنوع من التطهير النفسي.. ولا أعلم إن كان هناك مصطلح كهذا في علم النفس.. لكنه يبدو لي منطقيا وعلميا للغاية.. وهي أيضا الحادثة التي قادتني لاكتشاف مرعب سأذكر تفاصيله لاحقا.

بدأت أحداث القصة عام 2013 كما أسلفت.. وفي إحدى أيام شهر (يناير).. عندما ذهبت مع أمي إلى سوق (شرق) التجاري للتسوق.. حيث قضينا بعض الوقت لشراء ما نحتاجه من ثياب.. إلى أن شعرنا بالتعب بعد أكثر من ساعتين تقريبا.. فجلسنا في أحد المقاهي للراحة.. قبل أن تخبرني أمي أنها ذاهبة إلى دورة المياه.. لأجلس وحيدة مستمتعة بقهوتي المفضّلة وأشاهد شيئا ما على شاشة هاتفي.. وأمرر أصابعي بين خصلات شعري بتلقائية بين حين وآخر.

وأثناء ذلك.. انتبهت إلى أحدهم وهو يقف أمامي مباشرة.. مما جعلني أرفع رأسي عن هاتفي لأعرف هويته.. فتلاقت أعيننا لأرى شابا بدا لي في منتصف العشرينيات يحدق بي باهتمام شديد.. وهنا يجب أن أعترف أنني كنت أدرك جيدا جمالي وأنوثتي الطاغية وأعرف تأثيري على الشباب.. أقولها بلا غرور.. لذا لم يكن ذلك الشاب بالنسبة لي سوى أحد المعجبين الذين يطاردونني عند تواجدي في الأماكن العامة.. خاصة عندما أكون وحيدة كحالي في تلك اللحظة.. حتى كدْت أطلب منه أن ينضم إلى قائمة الذين يتمنون الحصول على اهتمامي لو كانت هناك قائمة كهذه.. لكن يجب أن أذكر أيضا أن أحدا منهم لم يقترب مني بهذه الطريقة الجريئة من قبل.

كدت أسأله بحزم عن سبب وقوفه أمامي هكذا.. لكنه تحدث قبلها ليقول بكلمات حالمة حزينة وهو لم يبعد عينيه عني أبدا:

- اسمي (بشار) لقد اقتربْت منك لأتحدث إليك لأنني لم أرَ في حياتي جمالا كجمالك.. لقد سحرتني بملامحك.

قلت متجاهلة كلامه:

- أمي ستعود بعد دقائق.. ابتعد عني.. لست مهتمة بالتعارف.

لم يكن ردّي هذا كافيا كما يبدو.. لأنه ظل واقفا غير مكترث مرددا كلمات الإعجاب بألم يثير الشفقة والحق يقال.. لكني لن أمنحه اهتمامي من أجل ذلك بالطبع.. دعكم من أن جرأته أخافتني قليلا.. فطلبت منه الابتعاد عني فورا مؤكدة أن أمي قد تعود في أي لحظة وتراه.. ليتراجع مبتعدا معتذرا وهو يشير إليّ بيديه محاولا تهدئتي.. ولحسن الحظ عادت أمي بعدها بدقائق ولم تشعر بشيء.. في حين ظننت أنه مجرد موقف عابر وقد انتهى.

في صباح اليوم التالي.. خرجت من البيت لأركب السيارة مع شقيقي الأكبر ليأخذني إلى المدرسة ومن ثم يتجه إلى عمله كما هي العادة.. كنت حينها أشعر بخمول شديد بسبب البرد رغم أنني نمت جيدا الليلة الماضية.. فالتفَتُّ إلى شقيقي كي أسأله إن كنا نملك الوقت لشراء قهوتي المفضلة عند أي مقهى قريب قبل الذهاب إلى المدرسة.. إلا أن الكلمات احتبست في حلقي وأنا أنظر إلى تلك السيارة التي تقف على بُعد أمتار قليلة من بيتنا.. سيارة حديثة بيضاء اللون من طراز جيب.. يجلس فيها ذلك الشاب الذي بدا مألوفا إلى حد ما وهو يحدّق بي بحنان طاغٍ.. نعم.. إنه هو الذي كان يلاحقني في الأمس.. هل ظل يتتبعنا إلى أن عرف مكان بيتنا؟!.. أم قرأ لوحة سيارة أمي واستخرج منها المعلومات التي يريدها من صديق له مثلا؟!.

الاحتمالات كثيرة.. لكني لم أفكر بذلك كثيرا.. لأنني شعرت بشيء من التوتر.. فأي إعجاب هذا الذي يجعل أحدهم يستيقظ

باكرا ويقود سيارته إلى بيتنا فقط من أجل مراقبتي؟!.. ثم ماذا عن دراسته لو كان جامعيا.. أو عمله لو كان موظفا في جهة ما؟!.. إلا أنني التزمت الصمت ولم أخبر شقيقي خوفا أن يتفاقم الأمر ويتحول إلى شجار.. فذهبت إلى المدرسة لأنسى كل شيء تدريجيا وأنغمس في يومي الدراسي.

في مساء نفس اليوم.. وبعد أن أنجزت كل فروضي.. كنت أقضي وقت فراغي أمام شاشة هاتفي وقد بدأت مرحلة إدمان الهواتف الذكية تغزو مجتمعاتنا.. لأستقبل اتصالا من رقم غريب غير مسجل في ذاكرة هاتفي.. فقمت بالرد على المكالمة.. و:

- (ليال)؟!.. كيف حالك؟!.. أنا (بشار).

تطلّب الأمر لحظات قليلة كي أستوعب وأعرف هوية المتصل.. إنه هو.. نفس الشاب.. فانتفضْت في مكاني وسألته بذهول عن كيفية معرفته باسمي ورقم هاتفي.. ليخبرني بصوته الجامد أن هذا ليس بالأمر العسير في هذا الزمن بعد أن عرف مكان سكني.. خاصة وأن له أصدقاء ومعارف في جهات حكومية عديدة.

سألته بحدة عن سبب اتصاله.. فأجاب بكلمة واحدة فقط:

- أريدك.. أرجوك.

قلت محاولة أن أخاطبه بصوت العقل:

- لماذا أنا؟!.

رد بألم:

- لا أعلم.. أمور كهذه لا يمكن شرحها.. إنها مشاعري فحسب.. إنني أريدك.. أقولها بكل ثقة.

قلت برجاء محاولة الابتعاد عن المشاكل:

- أرجوك.. لست دمية كي تريدني وتحصل علي.. إنني إنسانة

حرة الإرادة.. وأنا بصراحة لا أريدك.. هكذا بكل بساطة.. أرجوك ألا تتصل بي أو تتبعني مرة أخرى كما فعلت صباح اليوم.. ستتسبب بإحراج كبير لنفسك لو علم أفراد أسرتي بالأمر.

هنا قال ما لم أتوقعه أبدا:

- إنني أريدك بمعنى أنني أرغب بالارتباط بك.. إنه عرض زواج.

اتسعت عيناي استغرابا وأطلقت ضحكة ساخرة رغما عني وأنا أقول:

- تتزوجني؟!.. لا شك أنك رأيتني اليوم في الزي المدرسي.. إنني في المرحلة الأخيرة من دراستي الثانوية.. أنا لم أكمل الـ 18 عاما بعد.. ولن أفكر بالزواج قبل تخرجي من الجامعة.. ثم أنني لا أعرفك.. وهذه ليست الطريقة المثلى عموما لكسب ود فتاة.. أرجوك أن تبتعد.. هناك الكثيرات غيري.

رد هائما:

- لن أجد فتاة مثلك.

قلت متهكمة:

- المرأة نصف المجتمع.. ستجد الكثيرات.. صدقني.

رد بسرعة:

- لا.. أنتِ فقط نصف المجتمع.

بدا جادا للغاية وهو يقول عبارته الأخيرة التي أخرستني بعض الوقت.. ليستغل ذلك ويبدأ الحديث عن نفسه.. فأخبرني أنه جامعي في منتصف العشرينيات من العمر -كما توقعت- ويشغل وظيفة حكومية.. وهو مقتدر ماديا على حد قوله ويريدني أن أتواصل معه وأمنحه الفرصة علني أُعجب به أيضا.. حتى وإن تأجل ارتباطنا بضع سنوات لحين تخرجي من الجامعة.. فالمهم حاليا أن نستغل تلك الفترة في التعارف.

لم أوافق على عرضه هذا.. فلا يمكن أن يحبّني ويتعلق بي

ويريدني للزواج وهو لم يلتقِ بي سوى في الأمس فقط.. هذه تصرفات تنم عن عدم نضج.. كما أن طريقة الملاحقة هذه لم تكن مريحة أبدا.. وهذا ما جعلني أطلب منه -وللمرة الأخيرة- أن يتوقف عن ملاحقتي.. لأنني لن أرغب به مهما فعل.. ليستمر الجدال بيننا بعض الوقت.. قبل أن يقول بصوته الحزين:

- سأظل ألاحقك إلى أن أحظى بموافقتك.. حتى لو تطلّب هذا العمر كله.

ثم أنهى المكالمة من دون أن ينتظر مني الرد.. فتصرَّفْت بسرعة وفعلت ما يفعله أي شخص يتعرض للمضايقة من الآخرين.. إذ قمت بحظر رقمه.. كما دخلت حساباتي على وسائل التواصل الاجتماعي ومنحتها صفة الخصوصية كي لا يطّلع عليها سوى المتابعين وعددهم قليل عموما.. فمعظمهم أقاربي أو صديقاتي.

لكن كل هذه التصرفات لم تكن كافية.. ولا أظنكم بحاجة إلى ذكاء كي تعلموا أن القصة ما تزال في بدايتها وأن مواجهاتي مع المدعو (بشار) ستتكرر.. لأنه استمر بملاحقتي طوال الأسابيع التالية.. إذ ظل يتواصل معي من أرقام مختلفة.. دعكم من تربصه الدائم بي صباح كل يوم تقريبا.. وكأن أحدهم دفع له مبلغا من المال لمراقبتي.. ولا أنكر أنني فكرت في هذا الاحتمال للحظة بالفعل ثم طرحته جانبا.. فلسنا هنا في عالم الجاسوسية وصراعات المخابرات كما نقرأ في الروايات.. ومن يريد مراقبتي لن يكشف عن نفسه هكذا بكل صراحة.

ثم رجّحت أن يكون (بشار) هذا مجرد مُترصّد.. أو (Stalker) كما يقال عنه باللغة الانجليزية(17).. هذا الاحتمال هو الأقرب إلى الواقعية.. فمن غير المعقول أن يراني في يوم.. وفي اليوم التالي فقط يلاحقني ويطلبني للزواج وهو لا يعرف عني أي

شيء.. لقد شاهدت أفلاما عديدة عن المُترصّدين.. وغالبا ما يكونون مصابين باضطرابات نفسية تؤدي بهم إلى سلوكيات منفرة مخيفة كهذه.. فتجد أحدهم يتعلق بفتاة لفترة من الزمن.. ثم يكف عن ذلك عندما يفقد الأمل أو يبتعد عنها قسرا.. ليفعل الشيء ذاته مع فتاة جديدة.. وهكذا.

المشكلة أنني عجزت عن إقناعه بالكف عن ملاحقتي رغم محاولاتي العديدة.. آخرها عندما تجاوز كل حدوده واتصل ليخبرني أنه يجلس في سيارته بالقرب من بيتنا منذ ساعات طويلة آملا أن أخرج لكي يراني ويتمعن بملامحي الجميلة على حد قوله.. وأنه فقد الأمل في ذلك بعد أن تأخر الوقت قليلا.. لكنه لن يتوقف.. وسيفعل هذا يوميا كي أتيقن من حبه لي.

فقررت أخيرا إبلاغ أبي وأشقائي بما يجري.. وجعلتهم يقرؤون كل الرسائل التي وصلتني من (بشار) من مختلف الأرقام التي تواصل معي خلالها.. مع جميع ردودي عليه.. ابتداء بمحاولاتي العقلانية الفاشلة لإقناعه بالابتعاد عني.. وانتهاء بتهديده باللجوء إلى الشرطة.

وقد أثار هذا غضب أفراد أسرتي كثيرا.. فأخذني أبي مباشرة إلى مخفر الشرطة متجاهلا توسلات أمي التي طلبت منه التروي والتعامل مع الأمر بهدوء من دون عصبية.. و.. حين علم الضابط بالموضوع.. طلب مني تزويده بكل المعلومات التي أعرفها عن (بشار) مع رقم هاتفه.. وأكد لنا أنه سيسعى إلى حل المشكلة بطريقة ودية أولا.. ثم طلب منا العودة إلى البيت على أن يتصل بأبي ويخبره بما حدث.. وقد كنت أعرف أن أبي سيكتفي بذلك.. فهو رجل مسالم بطبيعته ولا يبحث عن المشاكل.

قام الضابط في نفس اليوم باستدعاء (بشار).. وهدده بأن ما يفعله قد يتسبب بسجنه لو قررنا تقديم شكوى رسمية تجاهه.. لذا عليه التوقف فورا عن ممارساته هذه.. فوافق على مضض وأبلغ الضابط أنه سيبتعد عني.. حيث نقل الضابط

هذا الكلام لأبي مما جعلني أتنفس الصعداء ظنا مني أن القصة انتهت عند هذا الحد.

لكن.. يبدو أن (بشار) لم يأخذ تهديد الضابط بجدية.. فقد استمر بملاحقتي ومراقبتي في الأيام التالية من دون علمي.. كيف اكتشفْت ذلك؟!.. لأن ولعه الشديد بي جعله ينفجر ويكشف عن نفسه بعد أقل من شهر في أحد المجمعات التجارية عندما كنت برفقة قريبتي.. لا.. لم يكن وجوده صدفة كما قد يظن البعض.. هو بنفسه أكد لي ذلك عندما وجدته أمامي معترضا طريقي.

وفي البداية ظنّته قريبتي مجرد شاب من هؤلاء الذين يسعون لمعاكسة الفتيات.. لكنها فوجئت به وهو يمسك بيدي بلا اكتراث للناس من حولنا.. ليقول بحنان ومشاعر جياشة:

- أنا أحبك.. ولا أطيق الحياة من دونك يا (ليال).. ولن أتركك في حالك أبدا.. إنني على استعداد كي أحضنك وكأنك ستموتين غدا.. وفي الغد أحضنك وكأنك نجوتِ من الموت.. حتى رجال الشرطة أنفسهم لن يمنعوني من الوصول إليك.. سأكون فارس أحلامك الذي يعاملك معاملة الأميرات.. فقط لو سمحت لي.

لا أنكر أنني تأثرت بكلامه وملامحه الحزينة.. لكن تصرفاته كانت تؤكد أنه إنسان غير مستقر.. وهذا ما جعل الخوف يتغلب عليّ وأنا أهز رأسي أسفا أن ما يطلبه مستحيل ولن يتحقق.. ليقوم بآخر ما توقعْته أمام ذهول قريبتي.. إذ أمسك يدي وسحبني تجاهه ليحتضنني بكلتا ذراعيه حتى عجزت عن الإفلات منه.. فصرخت بذعر وأنا أطلب من الناس إنقاذي من هذا المجنون الذي لا أعرفه أصلا.. وتدخلت قريبتي أيضا وهي تصرخ به وتحاول إفلاتي منه.. ويبدو أن تصرفنا هذا أثار غضبه.. لأنه دفع قريبتي بكل قوته لتسقط بعيدا.. وانهال عليّ صفعا وهو يطلب مني أن أتوقف عن الصراخ.. ليتدخل أولاد الحلال سريعا محاولين إبعاده عني وهو ما زال ممسكا بي ويرفض

إفلاتي.. حتى أنهم اضطروا للاعتداء عليه ضربا كي يتمكنوا من السيطرة عليه.

هذه المرة كان من المستحيل أن يمر الأمر بهدوء.. فقد انتهى بنا المطاف إلى تقديم شكوى رسمية في المخفر بحضور أبي وأشقائي.. ليتم حبس (بشار) مؤقتا على أن يُعرَض على النيابة في اليوم التالي.. حيث علمنا أن القاضي قد يأمر بعرضه على طبيب نفسي ليتأكد من حالته العقلية.. لكن هذا لم يحدث.. لأن (بشار) أقدم على قتل نفسه في السجن بعد أقل من أسبوع وأثناء وجوده في السجن تمهيدا لمحاكمته.. نعم.. لقد انتحر تاركا خلفه رسالة يتحدث فيها عن حبه الشديد لي ويقول فيها حرفيا:

((***كنت مستعدا أن أفعل كل شيء من أجلها لكي تحبني.. وكان بإمكانها أن تقع في حبي لو منحتْني الفرصة.. لكنها لا ترغب حتى بمنْحي تلك الفرصة.. تماما كما حدث مع من كانت قبلها.. وقبلها.. لقد أدركت الآن أنني لن أجد الفتاة التي تقبل بحبّي.. وأنا لن أحتمل أن أكون مرفوضا هكذا.. لن أحتمل أبدا***)).

لا أنكر أن الرسالة التي تركَها أثّرت بي كثيرا.. وجعلتني في حالة نفسية سيئة ليومين كاملين بكيت خلالهما أكثر من مرة وقد شعرت أنني أتحمل جزءا من مسؤولية انتحاره.. رغم كلام أمي أن كل ما علينا فعله الآن هو الدعاء لـ(بشار) بالرحمة والمغفرة.. وتذكيرها لي أنه كان يعاني اضطرابات شديدة كما أكدت التحقيقات وكما أكد أفراد عائلته أنفسهم.. وعلي ألا أنسى الأضرار التي سببها لي ولقريبتي أيضا التي أصيب رأسها وكتفها بعدة كدمات جراء دفعه لها.. فكان من الممكن أن يتسبب لنا بأضرار أكبر لو لم يتم القبض عليه وإيقافه عند حده.

لكن الأمور لم تكن بهذه السهولة للأسف.. لأنني اكتشفت بعد تلك الأحداث أن هناك مشاعر غريبة للغاية تولّدت في

أعماقي.. مشاعر الخوف الشديد من تحديق الأغراب.. أتحدث هنا عن الـ(فوبيا).. الخوف غير المنطقي.. فقد انتبهت إلى ذلك في أول مرة أخرج فيها بعد حادثة اعتداء (بشار) عليّ بفترة بسيطة.. عندما جلست مع أحد أشقائي في مطعم شهير.. وشعرت بحالة شديدة من التوتر بعد دقائق قليلة وقبل أن ننظر إلى قائمة الأطعمة.. حتى أنني التفت مرتابة بلا سبب واضح.. لأجد مجموعة من الشباب جالسين على منضدة قريبة نسبيا.. وأحدهم يحدق بي إعجابا بجمالي كما يبدو.. وكأنني شعرت بنظراته تلك قبل أن ألتفت إليه.. إذ بدت وكأنها مسامير تخترق جسدي وتمزقه.

وعبثا حاولت تجاهل الأمر.. لكني عجزت عن ذلك.. فالتوتر كان أقوى مني.. لأنهض من مكاني فجأة أمام نظرات شقيقي المتسائلة.. وأخبره أنني لست على ما يرام ولا أشعر بالراحة في هذا المطعم من دون ذكر الأسباب.. لينهض من مكانه متفهما.. ويتجه ناحيتي ليحيطني بذراعه وهو يطلب مني أن أهدأ وأتنفس ببطء وأن أسير معه كي نذهب لمطعم آخر.

إلا أن هذا لم يكن مجديا.. إذ تملكتني نفس المشاعر.. أن أحدهم يحدّق بي.. لألتفت حولي وأجد أن هناك شابا يجلس مع فتاة انشغلت هي بالأكل وانشغل هو بالنظر إليّ.. مما جعلني أعتذر لشقيقي وأطلب منه أن نعود فورا إلى البيت.. وقد أدركت وقتها أنني -ولسبب ما- أشعر من خلال حاستي السادسة بأي نظرات تلاحقني من الأغراب الرجال.. وأن نظراتهم هذه تصيبني بتوتر وخوف شديدين على عكس نظرات النساء التي لا أشعر تجاهها بأي شيء.. كل ما أعانيه بسبب الوغد (بشار) الذي ما زال يؤذيني حتى بعد موته.. ولا أنكر هنا أنني شعرت بتأنيب الضمير لأنني شتمت شخصا ميتا كان يعاني اضطرابات نفسية حادة كما علمنا جميعا.

المشكلة أن الفارق بين النظرة العابرة والتحديق بسيط جدا.. فأي نظرة عابرة تتجاوز بضعة ثوان ستتحول إلى تحديق

مباشرة.. وكل تحديق يسبب لي ذعرا يجعل جسدي كله يرتعش وخفقات قلبي تتزايد.. إنها الـ(فوبيا) كما تحدثت عنها في بداية قصتي.. حتى بت أعود إلى البيت بعد كل مرة أخرج فيها وأنا في حالة نفسية سيئة للغاية.

كنت مضطربة جدا لا أعرف كيف أتصرف.. فمن غير المعقول أن أسجن نفسي في البيت.. ثم ماذا عن حياة الجامعة التي سأنتقل إليها في العام الدراسي الجديد؟!.. دعكم من أن الاختبارات النهائية من دراستي الثانوية باتت قريبة.. لا يمكن أن أتمكن من مذاكرة دروسي وأنا أعلم أن مجرد خروجي من البيت سيتسبب لي بأزمة نفسية لو حدّق أي رجل بي.

لقد اقترح أبي -بعد أن علِم بالأمر- أن يأخذني إلى طبيب نفسي.. واقتراح كهذا ليس بالأمر الغريب هذه الأيام.. على الأقل لمن هم في مثل سني.. لذا وافقت مباشرة.. على أمل أن يجد الطبيب حلا لمشكلتي في تلك المرحلة الحرجة والمهمة من حياتي.. فقمت بإجراء بحث سريع في الشبكة العنكبوتية.. حيث استقر رأيي على طبيب نفسي شهير اتصلْت بعيادته وحجزت موعدا لزيارته بعد يومين تقريبا.

نصف ساعة قضيتها -بحضور أبي- وأنا أخبر الطبيب النفسي بقصتي كاملة.. وهو يستمع إليّ بلا مقاطعة.. وينظر إليّ بطبيعة الحال -أي يحدّق بي- مما سبب لي توترا شديدا.. لأطلب منه صراحة أن يوجه نظره لمكان آخر.. فكان متعاونا ونفذ طلبي مشكورا.. ثم تحدث أخيرا بعد أن انتهيت من شرح المشكلة.. ليؤكد لي ما توقعته.. أن تجربتي المريرة مع (بشار) أصابتني بحالة متقدمة من (فوبيا) التحديق (سكوبوفوبيا) (18).. إلا أن حالتي مختلفة وغير مفهومة بالنسبة له.. لأنها تتعلق كما يبدو بـ(فوبيا) تحديق الأغراب فقط.. والذكور منهم من دون الإناث.. وهذا أمر لم يشهده من قبل.. إلا أن العقل البشري -والكلام للطبيب النفسي أيضا- معقد جدا ومن الصعب فهمه أو إخضاعه لقوانين طبية دقيقة.

ثم وصف لي دواء نفسيا عبارة عن أقراص مهدئة ومثبتة للمزاج على أن أتناولها بانتظام.. كما حذرني أن الأقراص وحدها لن تكفي لأنها ستسبب لي خمولا وكسلا.. وربما تضاعف شهيتي للأكل.. لذا يتوجب عليّ كذلك إجراء بعض التغييرات الجذرية في حياتي.. نتحدث هنا عن ثيابي وتسريحة شعري وعاداتي اليومية مع ممارسة الرياضة بصورة مستمرة والعثور على هوايات جديدة.. إلخ.

كانت هذه صفحة مهمة من حياتي وقد انطوت بسلام.. إذ تجاوزْت تلك المرحلة وتخرجت بعد ذلك من المرحلة الثانوية بمعدل مرتفع.. وحصلت على بعثة دراسية في (بريطانيا) حيث اخترت التخصص بهندسة الكمبيوتر.. لأسافر بعيدة عن عائلتي وأعيش هناك حوالي 4 سنوات هادئة مستقرة لم يحدث فيها ما يستحق الذكر.. سوى بعض المتاعب التي تعانيها أي طالبة مغتربة.. فكنت أزور عائلتي في الإجازات وأظل على تواصل مستمر مع قريباتي وصديقاتي.. إلى أن تخرّجت أخيرا وعدْت إلى (الكويت).. حيث قضيت شهورا قليلة باحثة عن وظيفة.. ليستقر اختياري على العمل في مؤسسة حكومية تعِد بمستقبل كبير.

وبعد سنتين تقريبا في وظيفتي هذه.. تزوجت أحد أقاربي بعد قصة حب.. شاب وسيم طيب القلب.. طموح مكافح ويحب العمل.. فكانت أيضا سنوات زواجنا الأولى مستقرة جميلة آمنة كل شيء فيها مدروسا بعناية.. لأننا كنا نعرف أن هناك عمرا افتراضيا للحب الرومانسي غير المشروط.. قبل أن تبدأ عيوب كل منا تظهر بعد ذلك وتتسبب بالمشاكل.. لكن بإمكان الزواج أن يستمر لو ظل الاحترام متبادلا بين الزوجين.. وهذا ما كان بيننا بالفعل.. الاحترام الشديد والمتبادل.. وهذا الاستقرار تُوّج بإنجاب طفلة جميلة منحناها كل اهتمامنا وحبنا.

وبالطبع فإنني كنت قد نسيت كل ما يتعلق بحادثة (بشار) وإصابتي بالـ(فوبيا) التي تعافيت منها تماما.. خاصة مع

التغييرات التي شهدتها في حياتي من ناحية انتقالي للحياة الجامعية وحياة العمل ومن ثم الزواج والإنجاب.. مع التخطيط لاستكمال دراستي الجامعية العليا بدعم من زوجي الذي كان يخطط للأمر ذاته.

ليأتي بعد ذلك التغيير الأكبر في حياتي.. والنقلة الجديدة في قصتي.. عندما جاء زوجي إلى البيت مساء ذات يوم مبتسما وهو يحمل لي بشرى سارة على حد قوله.. فأثار هذا حماسي كثيرا وأنا أنتظر منه أن يتحدث.. ليقول بابتسامة عريضة ولهفة:

- لقد تحدثت مع شقيقك منذ قليل وأخبرني أن هناك بيتا للبيع بسعر معقول جدا في نفس الحي السكني لبيت عائلتك.. بإمكاننا شراؤه كي تكوني قريبة من والديك دوما.

طرت فرحا وأنا أحتضنه بحرارة.. وابنتي ذات العامين تلعب بمرح وقد شعرت بالطاقة الإيجابية التي نبثها حولها.. ثم طلبت من زوجي أن يصف لي مكان البيت الذي سنشتريه كوني أعرف إلى حد ما جميع البيوت في حينا السكني.. فراح يصف لي مكانه بفخر.. لكني طرقت برأسي أرضا بشيء من الخيبة وأنا أقول:

- أعرف هذا البيت جيدا.. إنه قديم للغاية ومهجور منذ سنوات.. سيحتاج الكثير من المال لترميمه.

ابتسم زوجي مشجعا وهو يؤكد أنه مستعد للاقتراض من أجل إجراء كل الترميمات الأساسية.. كتجديد تمديدات الكهرباء والصرف الصحي والتكييف وطلاء الغرف.. وسيكون بهذه الحالة ملائما لأسرتنا الصغيرة لسنوات قادمة.. على أمل أن نكون في وضع مادي أفضل مستقبلا ومن ثم نقوم بهدم البيت كاملا وبنائه من جديد.. وهذا عموما -والحديث ما زال لزوجي- أفضل بكثير من السكن في شقة تستهلك جزءا كبيرا من مدخولنا.. فاقتنعت بكلامه.. واستقر بنا الحال لشراء البيت

فعليا.. حيث قمنا بإجراءات الشراء ومن ثم أعمال الترميم خلال الشهور التالية.

كان الانتقال إلى البيت يوما تاريخيا لن أنساه أبدا.. إذ تواجد أفراد عائلتي لمساعدتنا.. فأسمع كلمات المباركة من الجميع ودعاء أمي الذي ظلت تردده بصوت مرتفع كي تبعد عنا الحسد ولتحل علينا البركة.. لكن.. هنا يجب أن أتوقف قليلا لأتحدث عن مشاعر الخوف الغريبة التي أصابتني.. والتوتر الذي سيطر عليّ لحظة دخولي البيت في المرة الأولى وبعد انتهاء زوجي من أعمال الترميم.. أتحدث هنا عن مشاعري القديمة التي نسيتها طوال السنوات الماضية.. وعن (فوبيا) التحديق تحديدا!!.. كيف ولماذا تنتابني هذه المشاعر في بيتي؟!.. ولماذا راحت تتفاقم سريعا في الأيام التالية بلا سبب واضح؟!.. إنه الإحساس البغيض الدائم بضرورة الالتفات لأن شيئا ما يحدث خارج حدود مجاله المرئي.. إلى درجة أنني استذكرت حادثة (بشار) وكيف كان يترصّد بي في مراهقتي ويطاردني باستمرار.. لكن لا توجد أي علاقة تجمع بين (بشار) وهذا البيت الذي تمتلكه عائلة أخرى ثرية نسبيا.. فأهملتْه طوال السنوات الماضية.. إلى أن قرر الورثة بيعه واشتراه زوجي منهم.

ثم انتبهت إلى أمر آخر بعد بضعة أيام من انتقالنا لبيتنا هذا.. صحيح أنني كنت أشعر بعدم الراحة في جميع الغرف.. لكن هناك غرفة واحدة كانت هي الأسوأ على الإطلاق.. تلك التي اتخذها زوجي مكتبا له.. لأنني أنتفض رعبا بلا سبب كل مرة أدخلها.. فيستجيب جسدي سريعا لهذا الرعب وتحتشد قطرات العرق على جبيني.. وتتضاعف دقات قلبي لأصبح قريبة جدا من فقدان وعيي.. نعم.. إنها (فوبيا) التحديق التي عانيت منها في السنوات السابقة بسبب (بشار).. وهذا يعني أن هناك من يحدق بي في هذا البيت.. وفي غرفة المكتب تحديدا.. حتى لو كنت أجلس فيها وحيدة.

لماذا عادت (فوبيا) التحديق لتهاجمني بعد كل هذه

السنوات وفي غرفة المكتب تحديدا أكثر من غيرها؟!.. لم أجد الإجابة.. فلجأت إلى شبكة المعلومات باحثة عن أي شيء شبيه لحالتي كي أفهم ما يجري لي.. ولم أجد سوى مصطلح (وهْم برنامج ترومان)(19) نسبة إلى ذلك الفيلم الرائع الذي أعتبره أكثر فيلما غير مخيف مخيف في التاريخ.. وأرجوكم لاحظوا تكرار كلمة (مخيف) مرتين متتاليتين.. فهذا أمر متعمد.. لأنه بالفعل أكثر فيلم غير مخيف مخيف بالنسبة لي.

ويطلق مصطلح (وهْم برنامج ترومان) على كل مصاب بـ(وهم المراقبة) سواء بالملاحقة الشخصية أو بالكاميرات.. الفارق أنني واثقة من عدم وجود من يلاحقني ومن عدم وجود أي كاميرات في البيت.. وقد علمت كذلك -أثناء البحث- أن (وهم المراقبة) يعتبر من أعراض اضطراب الـ(فصام)(20).. لكن الـ(فصام) يستحيل أن يحدث هكذا فجأة بلا مقدمات وفي غرفة محددة أكثر من بقية الغرف.. دعكم من أنني أعود إلى طبيعتي وأصبح فجأة في أفضل حال مباشرة عندما أخرج من البيت.. لذا لم تكن عملية البحث ناجحة كثيرا للأسف.

لقد حاولت أن أخفي مشاعري عن الجميع.. وخصوصا زوجي.. كيْ لا أفسد عليه فرحة الانتقال لبيتنا الجديد.. لكنه لاحظ رغم ذلك أنني لست على ما يرام.. فسألني باهتمام:

- أنتِ لست سعيدة.. شيء ما يشغل تفكيرك.. ما هي المشكلة بالضبط؟!.

قلت وأنا أزفر:

- لا أعرف ما يحدث لي.. هذه هي المشكلة.

بدا كلامي غير واضح.. فشرحت له كل شيء.. واعتذرت له عن فشلي في إخفاء مشاعري.. وأخبرته أن القلق والخوف يسيطران عليّ لأسباب أجهلها.. وأن هناك إرهاقا معنويا غريبا لا يفارقني تقريبا ظهر على ملامحي أخيرا وكشف أمري.. فاحتضنني زوجي بحنان وهو يحاول إقناعي بطرد تلك الأوهام

من ذهني كما وصفها.. كما اقترح عدم دخول غرفة المكتب -مؤقتا على الأقل- لعل هذا يساعدني.

لكن الأمور ليست بهذه البساطة.. فأنا لا أدخل غرفة المكتب كثيرا في كل الأحوال ولا أحتاج دخولها.. والعاملة المنزلية هي التي تقوم بتنظيفها.. وليس من اليسير أن أعيش في بيت توجد فيه غرفة أكرهها وأخشاها من دون سبب واضح.. الأمر شبيه أن يكون هناك ثعبان سام في إحدى غرف بيتك.. لا أظنك ستشعر بالراحة لمجرد تجنبها وعدم دخولها.

ظلت حالة الـ(فوبيا) تسيطر عليّ وتسببت بسوء حالتي بطريقة تصاعدية سريعة.. فأصابني الأرق.. وبت أنام نوما متقطعا دمّر حالتي النفسية خلال فترة قصيرة.. وشعرت للحظة أن حياتي تتدهور وتتدهور يوما بعد يوم.. كيف أستطيع ممارسة حياتي الطبيعية وهناك شعور عام بالخوف والقلق المستمر؟!.. صدقوني أنا لا أبحث عن النكد هنا.. لا أحد يحب النكد.. لكن السعادة ليست بهذه البساطة.. إنها عبارة عن جينات وهرمونات ونواقل عصبية في الدماغ كما علمت فيما بعد.. فلا يمكنك أن تكون سعيدا فقط باتخاذ القرار.. الأمر يحتاج إلى رحلة من العلاج النفسي والبدني والاجتماعي وتغيير شامل في حياتك و.. بيئة سليمة قبل كل شيء(21).

وعبثا حاول زوجي التحدث معي بلغة العقل مؤكدا أن المشكلة بي وليست في البيت.. وإلا لماذا لم يشعر هو أو حتى العاملة المنزلية بأي مشاعر كهذه؟!.. كلام منطقي بالطبع.. لكن لا يمكن التعامل مع حالتي هذه بالمنطق وحده.. فـ(الفوبيا) أساسا وبكل أنواعها عبارة عن خوف شديد غير منطقي أصلا.. ولا أنسى هنا أنني بدأت أهمل طفلتنا أيضا بسبب سوء حالتي النفسية.. مما جعلني أقرر اللجوء إلى الطب النفسي.. مستذكرة تجربتي السابقة التي تحدثت عنها في النصف الأول من قصتي وكيف أتت بثمارها مع العلاج.. فأيّد زوجي هذا الاقتراح طالما سيعيدني إلى طبيعتي على حد

قوله.

بعد أقل من أسبوع.. ذهبنا معا إلى طبيب نفسي وفق الموعد المحدد.. فجلسنا في مكتبه وبدأت أسرد له قصتي كاملة.. حيث استمع إليّ باهتمام.. ثم أكد لي بلهجة الخبير أن هناك أشياء كثيرة غير منطقية في قصتي.. فكيف تعود (فوبيا) التحديق هكذا فجأة بعد كل هذه السنوات؟!.. ولماذا لا أشعر بها تجاه أي غريب يحدق بي كما كان الأمر في الماضي؟!.. ولماذا ترتبط فقط في غرفة واحدة من غرف البيت؟!.

سألني بعد تفكير:

- لو تمت إزالة غرفة المكتب هذه؟!.. هل تظنين أنك ستكونين بخير؟!.

فاجأني سؤاله.. ثم قلت بتردد:

- لكن.. ماذا لو فعلنا ذلك وانتقلت طاقة الغرفة السلبية إلى كل أنحاء البيت؟!.

رد مغمغا:

- لا يوجد شيء كهذا في علم النفس.. إن قصتك معقدة والحق يقال.. سأفترض أن (فوبيا) التحديق عادت لتصيبك لأسباب مجهولة فحسب.. وسأتجاهل بقية التفاصيل.. لا تنسي أن لك تاريخا مرَضيًا بذلك.

سأله زوجي فجأة:

- هل من الممكن أن يكون البيت مسكونا بالجن؟!.. لأنه ظل مهجورا لسنوات طويلة.. الجن يسكن الأماكن المهجورة.. أو.. هذا ما نسمعه دوما.

رد الطبيب بلهجة رجل العلم:

- لم يحدث في تاريخ الطب النفسي أن شعر أي إنسان بهذا

النوع من الـ(فوبيا) بسبب الجن.. فزوجتك لم تلحظ أي شيء غير عادي.. إنها مشاعر الخوف والتوتر التي تسيطر عليها فقط.

ثم التفت ناحية جهاز الكمبيوتر كي يصف لي دواء نفسيا سيجعلني في حال أفضل كما أكد لي.. وتنحنح بعدها بشكل يوحي أن المقابلة انتهت.. وللأسف فإن هذه المرة لم يصنع الدواء أي فارق رغم التزامي به لأكثر من شهر وصلَت فيه حالتي النفسية إلى الحضيض.. وإلى درجة أن ذكرى (بشار) السيئة صارت تلاحقني يوميا وكأنني عشتها بالأمس كونه هو من تسبب لي بهذه الـ(فوبيا) أساسا.

لقد حاولت إقناع زوجي ببيع البيت.. لكنه ذكّرني أن عملية العثور على مشتري أولا ثم المرور بإجراءات البيع والشراء لن تتم في يوم وليلة.. فقد تمتد لأسابيع -أو حتى شهور- سأكون خلالها مت ألف مرة من التوتر الذي ظل يتضاعف بطريقة غريبة.. وكأن الذي كنت أخشاه في غرفة المكتب قد بدأ يتسرب إلى كل جوانب البيت.. ما هذا الذي يتسرب؟!.. ليتني أعلم.. إنه فقط شعور غريب منفر مرعب لا أستطيع وصفه.. إلى درجة أنني في النهاية لم أحتمل أكثر.. فقررت الانتقال مع طفلتي للسكن في بيت العائلة وسط اعتراض زوجي الذي تركناه وحيدا.

وبمجرد انتقالي لبيت العائلة.. عادت إليّ مشاعري الطبيعية وانزاح عني عبء ثقيل جدا.. لكني لم أكن سعيدة بسبب حالة عدم الاستقرار هذه كوني أعيش مع طفلتي بعيدا عن زوجي.. وقد انتهى تفكيرنا إلى بيع البيت.. وهو ما وافقني عليه زوجي.. شرط أن نأخذ وقتنا في البحث عن مشترٍ كي لا يستغلنا أي تاجر جشع فيعرض علينا مبلغا أقل من السعر المستحق.. على أن أظل مع طفلتي في بيت العائلة مؤقتا في ظل الاهتمام الذي نحظى به من قبل والديّ.

ظللت على هذا الوضع بضعة أسابيع كانت خلالها علاقتي بزوجي ليست على ما يرام للأسف بسبب وجود كل منا في

بيت مختلف -حتى وإن كنا في نفس الحي السكني- فتشاجرنا أكثر من مرة لأسباب تافهة كنا نفجر فيها غضبنا بسبب نمط تباعدنا في الآونة الأخيرة.. والبيت ما زال معروضا للبيع من دون أن يتقدم أي شخص جاد للشراء.. كما بت أتغيب عن العمل ولا أوليه اهتمامي كحالي في السابق.. و.. لا أعرف لماذا طرأت في ذهني فجأة حقيقة بديهية للغاية أثناء تلك الفترة.. فقد انتبهت إلى أنني فتاة محظوظة جدا في واقع الأمر.. أعيش حياة جميلة يفترض ألا أعاني بسببها.. إنني أنتمي إلى عائلة متماسكة متحابة.. ولديّ زوج يحبني كثيرا -رغم بروز بعض الخلافات مؤخرا- أنجبت منه طفلة جميلة تتمناها كل أم في العالم.. وحالتنا المادية لا بأس بها رغم الضغوطات.. أي أن كل مشاكلي في واقع الأمر عبارة عن وهم ينبع من داخلي فقط.

هذا ما جعلني أنهض غاضبة يومها وقد قررت مواجهة مخاوفي الوهمية.. إذ لن أقف مكتوفة اليدين وأنا أرى حياتي تنهار بهذه السهولة بسببي أنا وحدي.. فخرجت من بيت العائلة متجهة إلى بيت الزوجية وقد بدأت الموصلات العصبية تتلاعب في دماغي وتنتج كميات ضخمة من الخوف كحال كل مصاب بالـ(فوبيا).. وهذا أمر طبيعي لأن قرار المواجهة وحده لا يكفي لتكون شجاعا وتتخلص من مخاوفك.. خاصة لو كانت مخاوفك مرَضيّة كحالتي.

لكني حاولت أن أتماسك وأخذت نفسا عميقا عندما وقفت أمام باب البيت.. لأفتح الباب بيد مرتجفة وأسير بخطوات ثقيلة متجهة إلى الداخل ناحية غرفة المكتب.. لحسن الحظ أنني لم ألتقِ بزوجي الذي قد يكون في غرفة النوم في الطابق العلوي.. أريد أن أواجه مخاوفي وحدي من دون حتى نظراته أو كلمات التشجيع التي ستزيد من توتري.. فأمسكت بمقبض باب غرفة المكتب.. ودخلت أخيرا.

فتحْت النور وظللت للحظة عند عتبة الباب محاولة التقاط

أنفاسي.. جسدي يرتجف بالكامل.. هناك حواجز نفسية هائلة تمنعني من الدخول والوقوف بمنتصف الغرفة.. ومن يعاني أيّا من أنواع الـ(فوبيا) سيفهم معاناتي جيدا.. لكني رغم ذلك.. دفعت نفسي دفعا إلى الداخل وأغلقت الباب خلفي.. هل الغرفة مسكونة بالجن كما قال زوجي؟!.. ولو كان الأمر كذلك.. لماذا لا أرى أي شيء غير عادي؟!.. لماذا لا أسمع أصواتا غريبة مثلا؟!.. لا أظن أن للجن علاقة بالقصة.. ولم أتمكن من التفكير أكثر.. لأن جسمي توقف عن الارتجاف وتخشّب بالكامل من شدة الرعب.. والعرق بدأ ينهمر بغزارة من على جبيني.. كيف أصاب بـ(فوبيا) التحديق في غرفة خالية لا يراقبني أحد فيها أصلا؟!.. ولماذا هذه الغرفة تحديدا التي جعلتني أشعر بالنفور تجاه كل غرف البيت؟!.

سؤال طرحته على نفسي كثيرا ولم أعثر له على إجابة.. ولا أظن أنني سأجد له إجابة الآن لأنني على وشك التعرض للإغماء من شدة الرعب.. فغادرت الغرفة متجهة إلى غرفة المعيشة لتبدأ الدماء بالدوران في كل أنحاء جسدي.. وتهدأ أعصابي بعض الشيء.. وقد قادني هذا إلى التفكير بأمر بسيط قد يكشف لي حل هذا اللغز.. لأتجه مباشرة إلى الطابق العلوي حيث وجدت زوجي في غرفة النوم يشاهد التلفاز وقد فوجئ بزيارتي.. فألقيت عليه تحية سريعة وطلبت منه رقم مالك البيت السابق لكي أطرح عليه بعض الأسئلة.. ولن أشعر بالراحة أبدا إلا إذا فعلت ذلك بنفسي.

أخذت الرقم من زوجي واتصلت بالمالك مباشرة.. حيث تبادلت معه تحية سريعة وأخبرته بهويتي.. ثم طرحت السؤال:

- هل هناك أي شيء مريب متعلق بهذا البيت؟!.

وكأن سؤالي فاجأه.. إذ سألني مستغربا:

- مريب من أي نوع؟!.

قلت بعجالة:

- مريب وحسب.. أي شيء غير عادي.

قال بعد لحظات من الصمت:

- إنه أحد البيوت التي ورثها والدي من جدي.. وقد كان زائدا عن حاجة العائلة فأهملناه طوال السنوات الماضية.. إلى أن توفي منذ فترة قصيرة نسبيا.. لنقوم بحصر ممتلكاته ونبيع ما لا نحتاجه منها.. هذا ما حدث.

سألته بشيء من خيبة الأمل:

- المعذرة لكن ماذا عن والدك نفسه.. هل كان هناك أي شيء غير عادي يتعلق به؟!.

رد مؤكدا أن والده توفي بسبب أمراض الشيخوخة.. ولم يكن رجلا غير عادي فقط.. بل كان شديد العادية إن صح التعبير.. فشكرته وأنهيت المكالمة من دون أن أشبع فضوله وأخبره عن سبب أسئلتي هذه.. لأعود بعدها يائسة إلى بيت العائلة عالمة أنني خضت مغامرة فاشلة للتو لم يتغير على إثرها أي شيء.

بعد تفكير استمر بضعة أسابيع لم نُوَفّق خلالها ببيع البيت.. وبعد أن أصبح البرود والملل يطل على حياتي الزوجية.. قررت اللجوء إلى اقتراح الطبيب النفسي.. أن ألغي غرفة المكتب وأهدم جدارها لأدمجها مع غرفة المعيشة.. لعل هذا ينهي المشكلة.. علينا أن نجرب.. إنه الحل الأخير وإلا لن يكون أمامنا سوى استكمال الانتظار للعثور على مشترٍ.. ولم يكن من اليسير أن يوافق زوجي على اقتراح كهذا بسب ظروفنا المالية.. لكني أكدت له أنني سأتحمل المصاريف كاملة بعد أن أستلف المبلغ المطلوب من أحد أشقائي.. فوافق زوجي بعد إلحاح مني ووعدني بتنفيذ ذلك في أسرع وقت.

قام زوجي لاحقا باستقدام المقاول وسأله عن إمكانية تنفيذ ما ننوي فعله.. فأكد له الأخير -بعد الفحص- أن هذا ممكنا وأنه سيباشر العمل فعليا خلال يومين.. ليتم الاتفاق سريعا

حيث قدمنا له عربونا على أن يستلم بقية المبلغ حال الانتهاء.. فحضر المقاول فعليا في الموعد المحدد مع 3 عمال وبدأوا بإزالة الجدار لينكشف اللغز بأكمله فجأة!!.. كل مشاعر التوتر المجهولة التي عشتها في الفترة السابقة اتضح سببها في لحظة واحدة وبكل بساطة.. لأعرف أخيرا سر رعبي الدائم من غرفة المكتب هذه.

فعندما قام العمال بكسر الجدار.. ظهر لهم جدار آخر على مسافة نصف المتر تقريبا.. أي أن هناك جدارين وبينهما فراغ.. وهو ما لم ننتبه له أبدا.. أو ربما ظنناه وقتها سوء تصميم في بناء البيت.. وقد عثر المقاول في ذلك الفراغ على عدد ليس بالقليل من الجِرار الزجاجية.. على الأقل 15 جَرّة.. كل منها مغلقة بإحكام وتحوي مادة سائلة حافظة يسبح في وسطها زوج من العيون!!.. نحن نتحدث عن 30 عين لـ 15 شخص.. هل هناك من ارتكب جرائم قتل تجاه 15 شخص وسرق عيونهم وأخفاها هنا؟!. من الذي فعل ذلك؟!.. ولأي غرض بالضبط؟!.

اتصل بي زوجي ليخبرني بأمر هذا الاكتشاف الذي أصابه وأصاب العمال بصدمة هائلة.. أما أنا فأصبت بنوبة هلع من مجرّد تخيّل المنظر.. ونوبات الهلع ليست قاتلة بالطبع.. لكنها مزعجة للغاية كونها لا تؤدي إلى شيء في نهايتها.. لكن خلالها يسيطر عليك هاجس فقدان الاتزان والسقوط.. لتشعر أن جسمك استنفر كل وظائفه الحيوية بلا هدف(22).

لقد كانت كل العيون في الجِرار الزجاجية مُوَجّهة إلى غرفة المكتب لسبب أجهله.. لهذا السبب كنت أخشى دخولها كثيرا.. أعتقد أن عيون الموتى تمتلك طاقة نفسية معيّنة تجعل المصاب بـ(فوبيا) التحديق يشعر بوجودها.. إنه مجرد استنتاج لا أملك أي دليل عليه.. ومن العسير التأكد منه.. لأنني لا أظن أحدا غيري أصيب بـ(فوبيا) التحديق وتعرّض لحادث مماثل كهذا.

لقد أصبت بـ(فوبيا) التحديق منذ سنوات وقد ظننت أنني تعالجت وقتها.. إلا أن وجود كل هذه العيون في جرارها الزجاجية أخرج مخاوفي من مكمنها ثانيا.. إنها الذاكرة الانفعالية الموجودة في كل خلية من خلايا جسمك.. نعم.. الماضي لم يمت.. حتى وإن ظننت ذلك.. فعقلك الباطن يحتفظ بكل شيء لأسباب مجهولة.

المهم أن زوجي اتصل بالشرطة مباشرة وأبلغهم بأمر هذا الاكتشاف.. فلم يتأخروا.. وقاموا فور مجيئهم بتحويل البيت إلى مسرح للجريمة.. واستجوبوا زوجي والمقاول والعمال.. وأخذوا أيضا رقم هاتفي علهم يتواصلون معي لاحقا لأخذ أقوالي.. قبل أن يرحلوا آخذين معهم الجِرار الزجاجية إلى الأدلة الجنائية.

لقد تجرأت في صباح اليوم التالي وذهبت إلى بيت الزوجية لأستشف مشاعري وإن كانت هناك أي مخاوف ما تزال كامنة في أعماقي.. فشعرت براحة نفسية هائلة حال دخولي رغم هذا الاكتشاف المرعب وأعمال التكسير التي لم تكتمل بطبيعة الحال.. مما يعني أنني أستطيع أن أنام قريرة العين أخيرا رغم أنني لم أعرف بعد كيف وصلَت تلك الجِرار إلى بيتنا.. خاصة بعد أن قام رجال الشرطة باستدعاء المالك السابق الذي أقسم أنه لا يعرف عن الأمر شيئا.. إلا أنه ظل في دائرة الشبهات والتحقيق بالطبع.. فالقَسم وحده لن يكفي كي يتم إبعاده عن القضية.

بعد أسابيع من الحادثة.. علم زوجي من رجال الشرطة أمرا خطيرا كشف لنا الحقيقة كاملة بما يتعلق بهذه القصة الغريبة.. حيث أثبت الطب الشرعي أن جميع أزواج العيون الموجودة في الجِرار كانت لإناث.. وبألوان مختلفة.. فهناك زوجا من العيون العسلية وآخر من العيون الخضراء.. والزرقاء.. إلخ.. كل منها بدرجات مختلفة(23).. وكأننا نتحدث عن هواية جمع الطوابع أو العملات!!.

من الذي فعل ذلك؟!.. ولماذا؟!.. حسنا.. هنا كانت المفاجأة الأخرى.. فقد علمنا من المالك السابق أن والده كان طبيب عيون.. وهي المعلومة التي لم يخبرنا بها كوننا لم نسأله ولم يظنها مهمة.

يقول رجال الشرطة أن بعض العيون التي عثرنا عليها كانت لجرائم ارتُكِبت على فترات زمنية متباعدة منذ سنوات طويلة وتم تقييدها ضد مجهول.. وبعضها الآخر لموتى تسلل أحدهم ونبش قبورهم في نفس يوم وفاتهم لاستخراج جثثهم كي يسرق عيونهم.. تصرف بشع ومرعب بكل تأكيد.. لكن لماذا كان طبيب العيون مالك البيت السابق يفعل ذلك؟!.. لا أعلم للأسف.. فحتى ابنه ظل رافضا لفكرة أن والده فعل شيئا كهذا.. مدّعيا أن البيت ظل مهجورا لسنوات وربما استغله أحدهم لإخفاء تلك الجِرار.

إلا أن المنطق يقول أن مالك البيت السابق هو الفاعل كونه طبيب عيون.. خاصة وأن طريقة اقتلاع العيون وحفظها كانت احترافية لا يمكن أن يقوم بها شخص عادي.. هل كان له مساعد؟!.. أم أنه كان ينفذ أوامر أحدهم؟!.. ولماذا فعل كل هذا؟!.. هل بسبب هوَس معين؟!.. أم تجربة معينة؟!.. وهل كان ابنه الذي اشترينا منه البيت على علِم بما يحدث؟!.. لا أعلم.. لقد مات الأب ومات السر معه ويستحيل معرفة ما هو أكثر من ذلك للأسف.

على كل حال.. هناك الكثير من المجانين في العالم الذين لا تفهم دوافعهم.. أتذكر أنني قرأت عن شخص قام بنبش أحد القبور في دولة عربية أعتذِر عن ذكر اسمها.. واستخرج جثة فتاة وقام باغتصابها.. وقد قبضت عليه السلطات وتم الحكم عليه بالسجن لمدة 15 عام(24).. وهناك الكثيرون غيره الذين ارتكبوا أفعالا مرعبة من العسير أن تفهم أسبابها.. تماما كما حدث مع طبيب العيون مالك البيت السابق.

كيف وصلت الجِرار إلى البيت؟!.. هل لأن طبيب العيون مالك البيت السابق وجده مكانا ملائما كي يخفي فيه مجموعته بعيدا عن الشبهات؟!.. هل كان ينوي إخراج الجِرار من بين الجدارين فيما بعد لأخذها إلى مكان آخر.. للأسف فإن الإجابة على تلك التساؤلات عسيرة أيضا.

لقد زالت مخاوفي تماما تجاه البيت رغم هذا الاكتشاف المرعب الذي قد يجعل غيري يكره البيت أكثر وأكثر.. لكن.. ربما لأنني جربت الـ(فوبيا) في أسوأ حالاتها.. وحين تعافيت.. لم أعد أخشى شيئا.. أو لأنني على يقين أن مالك البيت لم يعد في عالمنا.. وأن (بشار) -المسبب الأول- لـ(فوبيا) التحديق مات منذ سنوات طويلة كذلك.. وأن جميع جِرار العيون عند الأدلة الجنائية الآن.

كما ترون.. من السهل التفكير بطريقة عقلانية منطقية بعد أن تزول عنك المخاوف.. إذ لم أعد أرى كل ما حدث سوى أنه عبارة عن ذكريات مزعجة وقصة جديدة غريبة سأرويها لأقاربي وصديقاتي.. تماما مثلما رويت قصة ملاحقات (بشار) لي وانتحاره.. إلا أنني أتساءل عن الصدفة الغريبة في اختيارنا لبيت تعرّضْت فيه لاختبار حقيقي لـ(فوبيا) التحديق هذه وبعد سنوات من ولادتها في أعماقي وظني أنني تخلصت منها.

لكني أدين للـ(فوبيا) بكشفي لهذا اللغز.. لأننا كنا سنعيش سنوات طويلة في البيت وهناك جِرار مغلقة تحوي عيونا لموتى تحدق بنا طوال الوقت من دون أن نعلم.. وقد راودَت زوجي بعض المخاوف في الأيام التالية وحتى انتهاء المقاول من هدم الجدار.. لكني ظللت أقنعه -في انقلاب طريف للأحداث- أن هذه قصة قديمة ويفترض أن نتجاهلها بعد أن أقفلنا ملفها إلى الأبد وعرفنا السر.. إلا أن فكرة بيع البيت ما تزال مطروحة.. حيث طلبت من زوجي أن نأخذ وقتنا بالتفكير بلا أي استعجال.. بعد أن شعرت بالراحة أخيرا وتخلصت من هذا الحمل الثقيل.. حمل (فوبيا) التحديق.. وعيون الموتى التي

كانت تراقبني.

المأوى

تحكيها (وجن)

العمر 15 سنة.

من دولة عربية لن أذكر اسمها.

إنها مرحلة غامضة مرهقة جدا بين الحزن والغضب.. فتشعر بأنك في القاع.. ومع ذلك ما زلت تسقط.. وأنك لا تكبر بسبب مرور السنوات.. بل بسبب مرور المواقف السوداء.. ولا تفكر بالمستقبل المجهول كما هو مُفترض.. لأن حاضرك أيضا مجهول ويشغل كل تفكيرك.. وليت كلامي السوداوي هذا ناتج عن علاقة حب فاشلة أو ضغوط الدراسة كحال معظم الفتيات في مثل سني.. فمشاكلي أكبر بكثير وتدمّرني من الداخل ببطء وثبات.. وأنا على ثقة أنني سأمتلئ بالعقد النفسية قريبا.

هذه أبسط مقدمة لحياتي التي فقدْت كل أمل في إصلاحها وجعلَتني أفكر كثيرا بالانتحار.. قبل أن تتغير الظروف فجأة.. لأكتشف ذلك المكان الآمن الذي لا يمكن أن يخطر ببال بشر ولا يمكن لأحد أن يصدق بوجوده.. فأنا نفسي لم أصدق بوجوده.. بل وأعترف أن الشكوك ما زالت تراودني عن حقيقة ذلك المكان قبل اللحظات الأخيرة من الرحيل.. لكني سأكتشف كل شيء بنفسي بعد قليل.

إنني أنتمي لأسرة فقيرة تعيش حياة قاسية وصعبة للغاية.. إذ لا يملك أبي أي مؤهلات من أي نوع.. مما جعله يعمل بوظيفتين يحصل خلالهما على راتبين متواضعين للغاية.. وتحاول أمي -التي لا تملك أي مؤهلات هي الأخرى- مساعدته بالعمل في تنظيف البيوت لتحصل بدورها على مبالغ متناثرة هنا وهناك.. فنعيش جميعا بمدخول بالكاد يكفينا لنهاية الشهر مع تقشف شديد وعدم التفكير بالكماليات على الإطلاق.

ولأن الفقير لا ينظر إلى المستقبل.. وإنما يبحث غالبا عن رزقه اليومي.. فقد قام أبي باستدانة المال عدة مرات من مختلف الأشخاص بسبب بعض الضروريات المُلحّة.. كإصلاح وحدة التكييف الوحيدة في شقتنا المتواضعة.. أو إصلاح الثلاجة التي لم أرها ممتلئة أبدا.. إلخ.. عالما أنه غالبا لن يتمكن من السداد لأحد في ظل هذه الظروف.

وقد كان بعض الدائنين يتنازلون عن حقوقهم حين يعلمون بحالنا.. وبعضهم كانوا يمنحوننا وقتا مفتوحا للسداد متى ما تيسرت الأمور.. لكن.. ظل هناك دائنون لم يقبلوا إلا باسترجاع أموالهم كاملة.. فكانوا يطرقون باب شقتنا بين يوم وآخر.. ليفتح لهم أبي ويرجوهم أن يرحمونا وينتظروا.. مؤكدا لهم أنه لو قام بتسديد ديونه -حتى لو على شكل أقساط ميسرة مثلما طلبوا منه- فإن هذا يعني نومنا في الشارع.

إلا أن ردوده وتوسلاته هذه لم تكن كافية.. لأنه تعرض كثيرا للشتائم والإهانات من الدائنين أمام باب الشقة وعلى مرآنا ومسمعنا.. فكنت ألتصق بأمي خائفة باكية.. وأنا أستمع إلى هذه الإهانات تجاه من يفترض أن يكون مصدر أمان العائلة (الأب).. وهو عاجز لا يجرؤ حتى على الاعتراض على إهاناتهم.. فلا يفعل سوى التوسل وتذكير الدائنين أنه في حالة سجنه -كما يهددونه باستمرار- لن يتغير أي شيء.. ولن يحصلوا على أموالهم.. ليتطور الأمر إلى الصراخ.. وأحيانا الاعتداء الجسدي وهم يذكّرونه بدورهم أنه لا يدفع في كل الأحوال وأن ورقة السجن هذه بيدهم دوما وستكون أداة ضغط كي يتصرف بسرعة ويسدد ما عليه.

لقد كانت أمي تخرج للدائنين أحيانا وترجوهم أن ينتظروا ويمهلونا.. وأحيانا كنت أخرج لهم بنفسي بإيعاز من أمي وأبي.. تخيلوا أن تتحمل فتاة في سن المراهقة مسؤولية كهذه.. ناهيكم عن بعض النظرات القذرة التي كانت تحيطني أحيانا من قِبل الدائنين.. خاصة ذلك الحقير الذي طلب مني

الزواج صراحة وهو في عمر والدي.. مع الوعد أنه سيجعلني أمزق ورقة الديْن بنفسي لو وافقت على عرضه وقمنا بعقد القران.. فيبكي أبي حسرة كونه لا يستطيع مسك ذلك الرجل من قفاه ليركله بعيدا عن شقتنا.. ويكتفي فقط بالرفض منكسرا أمام هؤلاء الأوغاد الذين يتمادون لأنهم يعلمون جيدا أننا مكشوفون ضعفاء معرضون للضربات وبإمكانهم سجن أبي في أي وقت.. وهذا قد يؤدي إلى مبيتنا في الشارع كون أمي وحدها لا تستطيع أبدا أن تعيلنا.

وقد حاول أبي كثيرا الحصول على مساعدات من الأثرياء أو الجهات الخيرية.. إلا أن عدد من يطلبون المساعدات مهول بالفعل.. وحتى لو ساعدك أحدهم مرة.. فمن الصعب أن يساعدك مرة أخرى.. وبصراحة فإن الأمر كان أكبر بكثير من مجرد الحاجة إلى مساعدة مالية.. وإنما كنا بحاجة لمصدر دخل أفضل.. وكان هذا شبه مستحيل في ظل مؤهلات والديّ المتواضعة كما ذكرت.

وحين يكون وضعك المادي بهذه الصورة السيئة.. سيسوء معه كل شيء آخر في حياتك.. وهذا ما جعل الأجواء في شقتنا متوترة بائسة تخلو من الحياة.. فيعود أبي منهكا من العمل مساء.. لنجلس معا بصمت ونتناول عشاء مضحكا تعده أمي.. ولا أحد منا يطيق الآخر أو يطيق الحياة نفسها.

وبالطبع كان لا بد أيضا من اندلاع المشاكل باستمرار بين والديّ.. فأصبح كل منهما يصب جام غضبه على الآخر.. وأحيانا علي.. ولأسباب تافهة جدا لا تلفت انتباه أي عائلة مستقرة في وضع مالي أفضل.. مما جعلني أفهم أن وجودي أمام مرأى والديّ في حد ذاته قد يضعني في المتاعب.. لأنزوي على نفسي أكثر وأكثر.. وأحاول تجاهل هذه الأجواء المسمومة قدر الإمكان.

لكن هذا ليس بالأمر السهل.. إننا نتحدث هنا عن شقة صغيرة للغاية عبارة عن غرفة جميعنا ننام فيها.. مع صالة

متواضعة.. فكيف سأعزل نفسي؟!.. لذا أبدو دوما منكسرة حزينة.. وقد أثار منظري شعور الأسف لدى زميلاتي في المدرسة.. وكل منهن تحاول التقرب مني لفهم ما أعانيه كوني اعتدت الصمت ولا أتحدث كثيرا لعدم جدوى الحديث أصلا.. إلا أنّ ملامحي كانت تقول الكثير.. وهزالي يقول أكثر.. وثيابي الرثة تؤكد ظنونهم.. دعكم من شرودي في الفصل والذي يكمل جميع الأدلة بأنني أعيش حياة غير طبيعية.

إلا أنني طالبة متوسطة المستوى أحقق درجات جيدة في تحصيلي العلمي.. رغم أن الشكوك تنتابني باستمرار إن كنت سأتمكن من إنهاء دراستي الثانوية ومن ثم الجامعية.. لأن وضع عائلتنا الكارثي قد ينفجر في أي لحظة ويؤدي إلى نتائج مجهولة قبل إنهاء دراستي الثانوية.. ليس أسوأها أن أنسى دراستي وأضطر إلى العمل في تنظيف البيوت -كحال أمي- لو حدث أي شيء لأبي.. إنها أسرة صغيرة مطحونة مفككة تنتظر الانهيار في أي لحظة.. مشكلتها الأزلية هي المال.. وهو مصدر كل المشاكل الأخرى التي نعانيها للأسف.

أما الحب فليس له وجود في حياتي.. ولم أكن أملك البال الرائق له في ظل عدم الأمان الذي يحيط بي.. رغم أنني أعيش في عمارة سكنية تمتلئ بالأولاد بمن هم في مثل سني تقريبا.. إلا أن الأمور لم تعد كما كانت في الماضي عندما كان ابن الجيران هو أول شاب غريب تلتقي به الفتاة.. وغالبا ما تبدأ بينهما علاقة تنتهي مع مرور الوقت.. لكن في هذا الزمن.. حتى ابن الجيران فقد رونقه.. لأنك لم تعد تعلم بوجوده أصلا.

ولا أنسى كذلك أنني لا أملك أي من مفردات الرفاهية.. فطلباتي تكاد تكون معدومة.. وحتى هاتفي الذكي هو في الواقع هاتف قديم مستعمل أهدته لي زميلة في المدرسة رأفت لحالي.. ولا أستخدمه إلا بواسطة أحد الجيران الذي سمح لي باستخدام جهاز الـ (Wi Fi) الخاص به.. ومنحني مشكورا معلومات استخدامه كونه يعلم بظروفنا جيدا.

فكانت هذه أوقات الاستمتاع الوحيدة في حياتي.. أن أخرج من شقتنا وأسير في ذلك الممر الضيق بين الشقق ثم أجلس على إحدى درجات السلم.. وأدفن وجهي في هاتفي.. فأرد -من دون أن ألتفت- على كل من يلقي التحية أثناء مروره.. علما بأن جميعهم تقريبا من طبقة فقيرة وإن كانوا أفضل حالا منا.

هكذا هي أيامي باختصار.. لا أترك الهاتف إلا لأتابع حياتي.. ثم أعود إلى الهاتف لعدم وجود حياة.. إلا أن جلوسي على درجات السلم واستخدامي لهاتفي كان هو السبب الرئيسي لذلك التحوّل الهائل في الأحداث والذي جعلني أروي قصتي هذه.

كنت في ذلك اليوم جالسة على إحدى درجات السلّم -كعادتي- أشاهد مقطعا من مسرحية على شاشة هاتفي.. لأسمع صوت وقع أقدام مجموعة من الأشخاص خرجوا من المصعد ليسيروا بثبات في الممر وهم يتبادلون المزاح بطريقة أكدت لي أنهم لا يفوقونني سنا بكثير.. ربما أكبرهم لا يتجاوز الـ 20 عاما.. وقد كانوا 3 على ما أظن.. إلا أنني لم ألتفت لأعرف هويتهم.. لكني علمت مباشرة أنهم ليسوا من سكان العمارة عندما وقفوا أمام إحدى الشقق وراحوا يطرقون بابها بضربات مستهترة.. فنهضت من مكاني وصعدت الدرجات القليلة كي أسترق النظر.. لأجدهم في آخر الممر أمام شقتنا.. هذا ما كنت أخشاه.. هل هم دائنون آخرون؟!.. لا يبدون كذلك.. أو ربما هم أبناء أحد الدائنين؟!.. لا أعلم.

انكمشْت في مكاني مترقبة أن يفتح لهم أبي الباب.. وما إن فعل.. حتى سمعْت أحدهم يتحدث بصوت مرتفع صارم مؤكدا أنه ابن أحد الدائنين بالفعل وقد جاء بصحبة شقيقيه.. وأن والدهم تعب من القدوم كل مرة ليطلب أمواله.. لذا قرروا المجيء بأنفسهم لإجبار أبي على الدفع.

كان واضحا من استهتاره وطريقته المتعالية في الحديث أن الأمور هذه المرة ستكون أسوأ.. وأنهم هنا للبلطجة وليس

مجرد الحديث.. ولم أكن مخطئة للأسف.. إذ رأيت أحدهم يمسك أبي من ثيابه بطريقة مهينة انعدم فيها الاحترام لرجل يفوقهم سنا بسنوات.. وراح يطلب منه أن يسدد المبلغ الآن وفورا.. فيقسم له أبي أنه لا يملك شيئا وأن ما يفعلونه لن يجدي.. مما جعله يقول لأبي بوقاحة وخبث:

- سمعنا أن لديك ابنة.. دعني أراها.

وكأنه يتحدث عن بضاعة يرغب بشرائها.. فتراجعت إلى درجات السلم مذعورة خوفا أن ألفت انتباههم ويرونني.. إن دوافع هذا الحقير واضحة ولا تحتاج إلى تفسير.. نعم.. هكذا يفعل البعض حين يملكون سلطة مطلقة عليك.. خاصة لو كانوا على هذه الدرَجة من الدناءة.. ولا أنسى أنني شعرت يومها بشفقة حادة تجاه أبي وهو يؤكد لهم منكسرا أنه لن يبيع ابنته الصغيرة فقط لأنه يدين لهم بمبلغ من المال.. حتى وإن كلفه ذلك السجن.. ليقول له الشقيق الأكبر سنا وقد أعجبته الفكرة كما يبدو:

- إنني على استعداد أن أمزق ورقة الديْن.. شرط أن أتزوج ابنتك من دون علم والدي.. فكّر بهذا العرض جيدا.. لن أتصل بك.. بل سآتي إلى شقتك بعد يومين لأعرف الجواب.

قالها وأنهى الحديث ثم أشار لشقيقيه أن يتبعاه.. هذا مهين ومخيف وغير معقول.. جميعهم يريدونني أن أدفع ثمن ديون أبي بطريقة رخيصة حقيرة.. ثم.. أسمع أحد الشقيقين يسأل الأكبر سنا وهم يسيرون في الممر متجهين ناحية المصعد:

- هل تريد الزواج من ابنته بالفعل؟!.

فيرد عليه بصوت ساخر وصل إلى مسامعي:

- زواج قصير لن يستغرق شهورا -وربما حتى أسابيع- ثم أرسلها إلى بيت أهلها مع ورقة الطلاق.. أريد أن أحصل على شيئا منهم.. فمن الواضح أنهم غير قادرين على الدفع.

سكت للحظة.. ثم استطرد وقد اتسعت ابتسامته:

- هناك حل أفضل وأسهل.. أن أتربص في الخارج انتظارا لابنته كي أستفرد فيها وأجبرها على تنفيذ رغباتي وإلا سأسجن والدها.

قالها ثم أطلق ضحكة ساخرة مرعبة أعادتني إلى عالم الواقع.. وانتبهت إلى أنهم باتوا قريبين جدا من المرور عبر الدرَج.. إنهم لم ينتبهوا لوجودي أثناء مجيئهم.. ومن العسير أن أكون محظوظة إلى درجة ألا ألفت انتباههم أثناء خروجهم أيضا.. هي فقط التفاتة بسيطة ليرونني.. ما الذي سأفعله؟!.

تجمّدْت في مكاني عندما انتبهوا لوجودي فعليا.. ليتوقفوا وهم ينظرون إليّ بنظرات الإعجاب.. أحدهم يبحث عن شيء يقوله.. أعتقد أنه يريد التأكد مما إذا كنت أنا الفتاة ابنة الرجل المدِين.. عندها قادتني قدماي لا شعوريا لأصعد الدرَجات القليلة وأتجاوزهم متجهة إلى الشقة المقابلة للمصعد.. لأقوم -ومن دون تفكير أيضا- بطرق بابها محاولة خداع أبناء الدائن بأنني لست الفتاة التي يظنونها وإنني أسكن هذه الشقة.

ظللت أطرق الباب وأنا أرتجف بطريقة واضحة وسط نظراتهم التي شعرْت بها وهي تكاد تلتهمني.. لتنحدر دموعي من هول الموقف وأنا أرجو من أصحاب الشقة أن يفتحوا لي.. يا إلهي.. هذا المشهد ليس غريبا علي.. لقد رأيته في فيلم على شاشة هاتفي منذ سنة أو أقل(25).. وقد كنت أشعر بالألم لمصير البطلة.. ربما لهذا السبب تصرف عقلي الباطن بنفس الطريقة.. إنني أعيش موقفا شبيها وربما أكثر سوءا.. هل سأجد طوق النجاة كما وجدَته بطلة الفيلم؟!.. يا رب.. و.. فتح أحدهم الباب أخيرا.

لم أجد الوقت لأعرف هوية الشخص الذي فتح لي الباب.. لأنه أمسك بيدي وسحبني إلى الداخل ثم أغلق الباب وأوصده

مباشرة.. بعدها فقط تمكنت من النظر إليه وإلى ملامحه.. إنه مجرد رجل عجوز حليق الوجه الذي امتلأ بالتجاعيد ويمتلئ شعره بالشيب.. وكان يرتدي منامة لا أراها إلا على العجائز في الأفلام العربية.. وبعد لحظات من الصمت وشعوري بالأمان لوجودي في الداخل.. تذكرْت أنني لم أرَ أحدا يدخل أو يخرج من تلك الشقة من قبل.. حتى ظننت أنها مهجورة.

طردت خواطري هذه وأنا أرى ذلك الرجل يتأملني بحزن وحنان بالغين.. يبدو أنه شعر بالأسف تجاهي بسبب دموعي التي انهمرت ومنظري المكتئب الذي يحمل آلاما يفترض ألا تحملها فتاة في مثل سني.. فقال بطريقة أبوية:

- أرجو أن تكوني بخير يا صغيرتي.

لن أبالغ لو قلت أنها أجمل عبارة سمعتها في حياتي.. لأنها جاءت على لسان رجل في عمر أبي -وربما جدي- ولم أكن لأمانع أن يعيد سؤاله مرة ثانية وثالثة.. إلى هذه الدرَجة كنت بحاجة للشعور بالأمان والاحتواء.. وقد كانت عبارته كافية كي أنفجر باكية بصوت مرتفع وأنا أرتمي في صدره.. أعلم أن هناك ضعاف نفوس ومرضى ومنحرفين أخلاقيا قد يفكرون بممارسة أشياء مريضة مع فتاة في مثل عمري.. لكنه لم يبدُ لي أنه من هؤلاء.. وإنما وضع يده على رأسي وهو يغمغم بألم:

- يا ابنتي.. ماذا فعلوا بك؟!.

لم أتمكن من الكلام.. لأنني استمررت في البكاء تأثرا لدقائق طويلة بللت خلالها ثيابه بالدموع.. فقدم لي ماء باردا وطلب مني الذهاب إلى الحمام لأغسل وجهي.. وما إن دخلت.. حتى وقفت أمام المرآة بوجه منتفخ.. غريب أن تنظر إلى نفسك في المرآة وأنت تبكي.. فقط لتشعر بالأسف تجاه نفسك وتبكي أكثر.. لكني تداركت نفسي رغم كل شيء.. وخرجت لأجلس مع العجوز في غرفة المعيشة الصغيرة حيث طلب مني أن أفتح له قلبي وأخبره بكل الحرائق التي تعتمل في صدري.

فتحدثْت كما لم أتحدث من قبل.. وأخبرته بحالنا وكيف تعاني أسرتنا التي أصبح الهاجس المادي مسيطرا على حياتنا بالكامل.. وكيف أنني أكره المال أكثر من أي شيء آخر.. فهو الذي قضى عليّ نفسيا وبدنيا وأفقدني الشعور بالأمان.. انتهاء بحادثة هؤلاء الأوغاد الذين هربت منهم للتو.. في حين ظل هو جالسا بالمقابل ويستمع إليّ متعاطفا لأكثر من ساعة.

عندما انتهيت.. راح ينظر إلى الجدار بشرود.. لأصاب بدوري بالشرود في ظل هذا الهدوء.. وأبدأ ألقي نظرة سريعة حولي محاولة استكشاف شقته.. غريب أنني لم أفعل هذا سوى الآن.. لكنها عموما شقة بسيطة للغاية.. ولا أبالغ لو قلت إنها أبسط من شقتنا وتبدو أكثر فقرا.. مجرد كرسيين مهترئين جلست أنا على أحدهما.. وسجادة قديمة تتوسط المكان.. وجهاز تلفاز قديم على منضدة خشبية متآكلة.. إلا أن الشقة بدت نظيفة للغاية رغم ذلك.. كما كانت هناك منضدة مركونة عند الحائط عليها صندوق خشبي قديم كبير نسبيا يكفي أن تخفي داخله قطا كاملا.

قال العجوز بهدوء كاسرا حاجز صمته:

- إنني لا أخرج من شقتي هذه أبدا.. فحتى احتياجاتي تأتي إليّ بواسطة خدمة التوصيل.. ورغم أنني لا أعرف ظروف أحد من سكان العمارة.. ولم ألتق بأي منهم منذ مدة طويلة.. لكني أعرف الحال في شقتك.. وأظن أن جميع السكان -في هذا الطابق على الأقل- يعرفون.. لأنني أسمع صراخ الدائنين على والدك وهم يطالبونه بتسديد ما عليه بين حين وآخر وأشعر بالأسى تجاهكم.. وقد رأيتك أكثر من مرة بواسطة ثقب الباب وأنت تسيرين في الممر أو تجلسين على درجات السلم كونه يقع مقابل شقتي كما تعلمين.. فقد لمحتك تبكين أكثر من مرة.. إلا أنني اعتدت عدم التدخل في شؤون الناس.. ولم أكن لأتدخل في شؤونك لولا أنك طرقت باب شقتي وطلبت المساعدة.. والواقع أنني سعيد أنك فعلت ذلك بعد ما سمعته

منك.

ظننته للحظة وكأنه سيمنحني حلا على طبق من ذهب لجميع مشاكلي.. لكنه سألني بالمقابل:

- ألا يفترض أن تعودي إلى شقتك يا ابنتي؟!.. أخشى أن يسأل عنك والداك.

قلت بابتسامة حزينة:

- إنهما لا يسألان عني أبدا.. فكلاهما منشغل بقسوة الحياة والمصائب التي تلاحقنا.. إنهما يعملان طوال الوقت.. وليت هذا كافٍ لنتمكن من تسديد ديوننا.

قال بحنان أبوي جارف:

- إذًا تستطيعين البقاء هنا إن شئت.. بالمناسبة.. اسمي (إبراهيم).

وراح يتحدث عن نفسه.. ليخبرني أنه يعيش وحيدا منذ سنوات بعد وفاة زوجته متأثرة بمرض السرطان.. وأنه لم ينجب منها ولم يتزوج بعد ذلك.. مما يضعه في وضع أفضل نسبيا من أسرتنا كونه ليس مدينا لأحد بشيء ولا يحمل على أكتافه أسرة ليعيلها.. وقد تحدث أيضا عن أمراض الشيخوخة الكثيرة التي تدمر صحته.. وأنه قريب جدا من العثور على حياة أفضل.. لكنه يخشى أن يموت قبل أن ينجح.. ينجح بماذا؟!.. لا أعرف.. لأنه كان يتحدث بحماس شديد منعني من مقاطعته.

انتهى من كلامه.. وقد شعرت أن الوقت قد حان للمغادرة وأنني كسبت صديقا لأول مرة في حياتي.. صديق في عمر أبي يملك من الحكمة والمعرفة والحنان والصدق ما يجعلني أرغب بالجلوس والاستماع إليه.. وقد تأكدت مشاعري تلك عندما قال السيد (إبراهيم) مغمغما:

- إنني موجود دوما للاستماع إليك يا صغيرتي.

تأثرت بكلماته هذه.. فترقرقت الدموع في عيني ومسحتها

بسرعة.. لأخرج عائدة إلى شقتنا الكئيبة حيث الأجواء المتوترة التي تسيطر على كل ركن منها كما هي العادة.. لكن هذه المرة شعرت باستعادة جزء بسيط من روحي المفقودة.

مرت أيام قليلة عشنا خلالها بترقب شديد ووالداي يحاولان ترتيب حساباتهما للمرة المليون لإغلاق ديوننا.. وهو مشهد اعتدته.. واعتدت أن ينتهي دوما بلا فائدة.. فهناك مال.. وهناك فتات.. وما نملكه أقل من الفتات.. ولا يمكن أن تكون هناك أي حلول لمعضلة كهذه.. لذا كان لا بد لهذه الحياة البائسة أن تصل لمنعطف آخر خطير كنا جميعا نتوقعه ونخشاه بشدة.

كان هذا حين طرق باب شقتنا أحد الدائنين مساء ذلك اليوم.. ليتحدث مع أبي بتوتر وعصبية وهو يطلب منه تسديد ما عليه فورا بسبب وقوع الدائن نفسه في ضائقة مالية.. ويبدو أن الدائن هذه المرة تحديدا كان في مأزق حقيقي بالفعل.. مما جعل الشد والجذب بينهما أكبر من أي مرة سابقة.. إذ قام الدائن بدفع أبي من شدة يأسه.. وسمح لنفسه بدخول شقتنا وهو يغلق الباب خلفه.. ثم راح يجول فيها بلا اكتراث باحثا عن أي شيء يأخذه ليبيعه عله يستفيد من قيمته.. فمد يده تجاه راديو قديم وبعض الحلى الرخيصة التي تمتلكها أمي.. أشياء تافهة لا توفي حتى ربع المبلغ الذي يطالبنا به.

ويبدو أنه أدرك أن ما يفعله لن يغير من حاله شيئا.. فقام في غمرة يأسه بالهجوم على أبي واعتدى عليه ضربا.. وهذا ليس بالمنظر الجديد لأن أبي المسكين فقد كرامته منذ زمن.. لكن هذه المرة تحديدا بدت الأمور وكأنها لن تتوقف عند هذا الحد وستصل إلى ذروتها.. فقد رأيت أبي ينفجر بمنطق اليائس الذي فقد الأمل بكل شيء.. وربما فقد عقله أيضا في لحظة غضب استشاطت فيها عيناه وتغيرت خلالها ملامحه.. ليهجم بدوره على الدائن ويشتبكان في صراع عنيف وضع فيه

أبي كل كراهيته وغيظه للعالم بأكمله.. فضرب الدائن ضربا مبرحا جعل الأخير يسقط أرضا والدماء تسيل من رأسه بغزارة وقد فارق الحياة كما بدا لي.

ظللت واقفة واجمة مرتعبة وأنا أرى كل هذا الكم من الدماء.. وأرى أمي التي راحت تولول وتصرخ بطريقة هستيرية.. وأبي الذي يلهث ويلهث بلا توقف وقد عاد إليه جزء من عقله وأدرك فداحة ما فعله.. و.. عندما ترى فتاة في مثل عمري كل هذه الأهوال.. لن تفكر سوى في نفسها وكيف تحصل على الأمان.. فوجدت نفسي -لا شعوريا- أتراجع تدريجيا منسحبة من الشقة لأخرج عبر ممراتها.. وأرى عددا ليس بالقليل من الجيران وهم يقفون في الممر ويستمعون إلى كل هذا الصراخ.. ثم انتبهْت أن بعضهم كان يطرق الباب بقلق ويطلب منا أن نفتح لهم.. لكن ما كان يحدث في الشقة أنسانا كل شيء.

وعندما خرجت من الشقة.. اندفع الجيران إلى الداخل لفهم ما يحدث.. وأنا أسير مبتعدة من دون أن ألفت انتباه أحد.. لأن صرخات أمي ونساء الجيران وجثة الدائن التي تنزف بلا توقف استحوذت على اهتمام الجميع.

ظللت أسير إلى الخلف بطريقة عكسية في الممر مبتعدة عن شقتنا وأنا ما زلت أعيش صدمة الموقف.. ثم تداركت نفسي ونظرت حولي باحثة عن مكان أهرب إليه.. ولم أجد أفضل من شقة السيد (إبراهيم).. لأتوقف أمام بابها وأطرقه بصمت وأنا أسمع أحد الجيران يتحدث هاتفيا مع الشرطة بصوت مرتفع ويخبرهم بوجود جريمة قتل.

فتح الباب.. لأدخل مندفعة وأرتمي في أحضان السيد (إبراهيم) تلقائيا باكية بحرارة.. ليحتضنني بالمقابل وهو يقول بهمس حزين:

- لا بأس يا ابنتي.. لا بأس.. إنك بمأمن معي.

إنه يعرف كيف ينتقي كلماته.. فكلمة (ابنتي) هذه تثير

كل مشاعري.. لأدفن نفسي في صدره أكثر وأنتحب بحرارة غير عالمة أين سينتهي بي المطاف في هذا العالم.. أما هو فقد أحاطني بذراعيه بطريقة أبوية أشعرتني بحنان افتقدته لسنوات.. لا أعرف من الأحمق الذي قال أن فاقد الشيء لا يعطيه.. أنا أجزم أن فاقد الشيء هو الأكثر بذخا في عطائه.. لأنه أعلم الناس بمرارة فقده.. لهذا يقدم لي السيد (إبراهيم) الحنان الأبوي.. وهو ما عجز عن تقديمه لأحد في الماضي بسبب عدم قدرته على الإنجاب كما علمنا.

كان من الواضح أن أسرتنا فقدت عائلها الوحيد بعدما حدث.. فلا يمكن أن ينتهي المطاف بأبي إلى مكان آخر غير حبل المشنقة أو السجن.. وهذا يعني أنني -مع أمي- في خطر شديد قد يصل بنا إلى التشرد.. لأن أمي لن تتمكن أبدا لوحدها من دفع الإيجار وشراء ضرورياتنا.. حتى لو عملْتُ معها وساعدتها طوال اليوم.. إن أسرتنا مقبلة على انهيار جديد أكثر مما كنا عليه.

أخبرت السيد (إبراهيم) بكل شيء وأنا أنتحب.. أما هو فظل يستمع مصدوما منزعجا متأثرا.. ثم صمت طويلا وهو ينظر إلى السقف.. وكأنه يحاول استيعاب صدمة وقوع جريمة قتل على بعد أمتار قليلة من شقته.. لينظر إليّ بعدها بتردد شديد وكأنه يعيش صراعا داخليا كبيرا إن كان عليه أن يتحدث أصلا أو يخفي ما بجعبته.. حتى أنني نظرت إليه بتساؤل ودموعي ما زالت تنهمر على أمل أن أجد الحل عنده.. إلا أنه نفض أفكاره التي لم يخبرني بها وطرح عليّ بعض الأسئلة التي لم يطرحها من قبل.. إذ سألني إن كان لي أي أقارب أستطيع اللجوء إليهم.. فابتسمت بمرارة وأنا أخبره أن أقاربنا ليسوا أفضل حالا بسبب ظروفهم المعيشية الصعبة.. والكل منشغل بحياته الخاصة.. وآخر ما يريدونه هو استيراد مشاكل جديدة وتحمُّل عبء أمي وعبئي. عاد إلى صمته متفكرا في إجابتي.. ليقول بعد تردد:

- إنني أفكر يا ابنتي.. والقرار ليس سهلا أبدا.. صدقيني.

سألته مستغربة وأنا أمسح دموعي بيدي:

- عن أي قرار تتحدث؟!.

لم يجب على سؤالي.. وإنما أشار إليّ أن أصمت كي يفكر قليلا.. أما أنا فقد تشتت انتباهي بسبب ما يحدث في الخارج.. الصراخ الذي لم يتوقف والحركة المستمرة في الممر وقدوم رجال الشرطة الذين لم يتأخروا.. وصوت الإسعاف في الشارع.

قال السيد (إبراهيم) بابتسامة حائرة قاطعا صمته:

- لا أستطيع التحدث الآن.. هناك أشياء كثيرة يجب التأكد منها أولا.. أرجوك أن تأتي لزيارتي مساء غد في مثل هذا الوقت.. سأخبرك عندها بكل شيء.

قالها وهو يطلب مني العودة إلى شقتي والبقاء مع والدتي.. فأصبت بخيبة أمل متذكرة أن هذا الرجل لن يملك عصا سحرية لإنقاذي حتى لو جعلني أشعر عكس ذلك.. لأخرج من عنده إلى العالم الحقيقي حيث تنتظرنا أياما عصيبة.

أستطيع القول أنّ الأيام التالية كانت سوداء بكل المقاييس.. تحقيقات مستمرة مع أبي الذي بدا أنه سيقضي عدة سنوات في السجن بعد أن علمنا أن القاضي لن يحكم عليه بالإعدام بسبب الظروف التي دفعته لارتكاب جريمته.. فنحن نتحدث عن اقتحام ذلك الدائن لحرمة شقتنا.. وأن أبي ارتكب جريمته أثناء عراك وفي حالة أشبه بأن تكون دفاعا عن النفس.

وقد عطف علينا بعض رجال الشرطة عندما علموا بحالنا.. وقاموا بجمع مبلغ بسيط من جيوبهم الخاصة يكفي لأكلنا وشربنا بضعة أيام.. ثم ماذا؟!.. من الذي سيعيلنا؟!.. ومن الذي سيدفع إيجار شقتنا المتهالكة؟!.. وكيف سنأكل؟!.. فحتى الوجبات البسيطة التي نأكلها والتي تكفي فقط لتبقينا على قيد الحياة باتت مهددة بالانقطاع.

لقد قاتلت أمي وقتها للحصول على وظيفة أخرى إلى جانب تنظيف البيوت.. فعثرت على وظيفة بسيطة في جهة خيرية بالكاد تكفي لدفع قيمة الإيجار.. وربما الأمر الإيجابي الوحيد في كل ما حدث هو عدم وجود ورقة ضغط يمارسها الدائنون علينا بعد أن تم سجن أبي فعليا.. حتى سمعنا فيما بعد أن بعضهم تناسى أمر الدين عندما أدرك أن أبي مدان في جريمة قتل وسيسجن لسنوات ليست بالقصيرة.. في حين أراد دائنون آخرون الانتقام فقط.. فقاموا برفع دعاوى على والدي وهو في السجن مطالبين بحقوقهم المالية.. أي أن أبي انتهى تقريبا ومات وهو على قيد الحياة.

هل كنت حزينة لحاله؟!.. بالتأكيد.. لكني لم أشعر بالتعاطف الذي يفترض أن تشعر به أي فتاة لما يمر به والدها.. لأنني أعلم أنه على الأقل سينام ويأكل ويشرب ولن يقلق على حياته اليومية.. لذا كنت أفكر أكثر بحالي وحال أمي.. عالمة أنني سأضطر فعليا لمساعدتها بتنظيف البيوت.. أي أنني سأعمل وأدرس في نفس الوقت.. وأنا أصلا لست بالطالبة المتفوقة كما ذكرت في بداية قصتي.. مما سيضعني تحت تحديات جديدة قادمة.

دعكم من ثقتي التامة أنني لست على ما يرام.. وأعاني اضطرابات نفسية شديدة.. ولو قام أي طبيب نفسي بفحصي جيدا.. سيدرك ذلك بسهولة.. فقد كنت أعاني صعوبات كثيرة في النوم رغم صغر سني.. وكوابيس مستمرة تتخللها مشاهد العنف من قبل الدائنين ومشهد أبي الذي قتل ذلك الدائن.. فأستيقظ أحيانا في أوقات متأخرة وأنا على وشك الدفاع عن نفسي.. لأتذكر أنني كنت أحلم فقط.. ناهيكم عن قضم أظافري واهتزاز ساقي دائما كناية عن التوتر.

مر حوالي أسبوعين أو أكثر قليلا على جريمة أبي ووجوده في السجن مؤقتا انتظارا لمحاكمته.. وقد نسيت كل ما يتعلق بالسيد (إبراهيم) وقتها.. إلا أنني بدأت أتساءل عن حاله مع

بدء استقرار حياتنا الجديدة وذهاب أمي إلى عملها في تلك الجهة الخيرية.. ومع اقتراب موعد عملي بتنظيف البيوت كما اتفقت مع أمي.. فقمت بزيارته مساء ذلك اليوم متوقعة أنها ستكون زيارتي الأخيرة للكم الهائل من مسؤوليات الدراسة والعمل التي يتوجب عليّ مواجهتها في الأيام التالية والتي ستشغلني عن كل شيء آخر.

طرقت باب شقته وانتظرت للحظات.. فانتبهْت إلى أنه ينظر إليّ من ثقب الباب ثم يبتعد.. ثم يسود المكان صمتا تاما.. هل تخلى عني هو أيضا وأصابه الملل من زياراتي؟!.. يبدو الأمر كذلك.. لقد جاملني بما فيه الكفاية.. ولا أحد يستطيع أن يجاملك طوال الوقت.. هذا ما قلته لنفسي وقد أصبت بالمزيد من الإحباط.. لأستدير عائدة إلى شقتنا.. لكن.. توقفت في مكاني والتفتُّ خلفي وأنا أسمع صوت باب شقته وهو يفتح.. لأرى السيد (إبراهيم) ينظر إليّ بطريقة مختلفة عن الماضي.. لم تكن تلك النظرات الحنونة التي اعتدتها.. وإنما نظرات توتر وقلق واضحين.. حتى أنه لم يلقِ عليّ التحية.. وإنما التفت يمينا ويسارا وهو ينظر إلى الممر.. ثم طلب مني الدخول ملوّحا بيده أن أستعجل خطواتي.

دخلْت شقته.. فأغلق الباب بسرعة وطلب مني الجلوس.. حيث وقف أمامي وأطلق زفرة عميقة.. ليقول:

- لقد طلبْتُ منكِ زيارتي منذ مدة.. لكنك لم تفعلي.. فنسيتك وصرفت النظر عنك تماما.. خاصة وأنني كنت على وشك الابتعاد عن هنا إلى الأبد قبل أن تعودي لزيارتي فجأة.. إن في حضورك رسالة من السماء على ما أظن.. وعليّ ألا أتجاهلها.

لم أفهم كلامه.. وظننت للحظة أنه يتحدث عن الانتقال خارج هذه العمارة السكنية إلى مسكن آخر.. لكني نظرت حولي سريعا ولم أجد ما يوحي أنه سينتقل قريبا.. فنظرْت إليه في حيرة.. ثم تجاهلت كلامه وقلت بحزن:

- إنني يائسة من كل شيء.. أعيش هبوطا حادا.. لا أعرف إن كان هذا الهبوط في ضغطي.. أم معنوياتي.. كما أن انشغالي الشديد مع أمي جراء ما حدث أنساني تماما أمر زيارتك.. المعذرة.

قلتها ولم يرد على كلامي.. وإنما ظل ينظر إليّ لفترة طويلة وكأنه ما زال يعيش صراعا نفسيا تجاه أمر ما.. لكني لم أكترث.. إنه يفعل ذلك كلما أزوره ويقول كلاما غير مفهوم.. إلا أن عينيه أصبحتا حازمتين فجأة هذه المرة وكأنه قرر التحدي.. ولا أعرف تحدي ماذا بالضبط.. المهم أنه قال بصوت هامس لم أفهم سببه:

- ما سأقوله يا ابنتي قد تظنينه مضحكا.. لكنه حقيقي.. صدقيني.. وقد قررت الآن فقط مشاركتك هذا السر الذي أمضيت سنوات طويلة أحتفظ به وأدرسه.. فكنت نفسي أتساءل إن كان ما أفكر به ضربا من الجنون أم أنه حقيقي.

نظرْت إليه بلا فهم.. ليكمل باهتمام بالغ:

- لقد تعرضْت منذ بضع سنوات لحادث مروري أصبت نتاجه بكسر في الجمجمة.. وهذا الكسر جعل الأكسجين يصل لأماكن محددة في دماغي لا يصل إليها عادة في أي جمجمة أخرى طبيعية.. وهذا أدى إلى تغيير حياتي رأسا على عقب.. فقد تحولْت من مجرد شخص عادي محدود التعليم ويصارع حياة بائسة.. إلى شخص عبقري أحمل في ذهني علوما مذهلة في الفيزياء والكيمياء والرياضيات.. فحين أقرأ أي كتاب.. أتمكن من فهمه فورا.. حتى أصبحت متخصصا في مجالات عديدة.. وكأنني (Guru)(26).

استحوذ كلامه الغريب على اهتمامي.. فظللت أستمع إليه متسائلة عن سبب إخباري بهذا.. ليكمل قائلا:

- لقد بحثْت كثيرا عن سبب نبوغي المفاجئ هذا.. لأكتشف

أنني لست أول من يتعرض إلى ذلك(27).. وأن أشياء كهذه من الممكن أن تحدث بالفعل.. لكني تجاوزت الأمر وقتها لأن عقلي ظل منشغلا بالبحث عن علاج لزوجتي التي كانت تعاني من السرطان آنذاك وفي مرحلة متأخرة منه(28).. فكنت أشعر بالأسى وأنا أراها تتألم كل يوم من دون أن أتمكن من مساعدتها.. حتى تمنيت للحظة أن أتمكن من السفر بها إلى أي محطة فضاء.. ففي الفضاء تنعدم الجاذبية وهذا يساهم بدرجة كبيرة بالتعافي من السرطان(29).. لكن.. السفر إلى الفضاء ليس بالأمر السهل أبدا.. حتى لو كنت أمتلك المال.. ورغم ذلك لم أفقد الأمل.. بل ظللت أبحث وأبحث طوال فترة مرض زوجتي من خلال الشبكة العنكبوتية.

سكت وهو يتنهد مستذكرا مرحلة يكرهها من حياته.. ليكمل:

- كنت أبحث عن أي شيء قد يساهم في إنقاذ زوجتي بعد أن يئست من الكلام السلبي الذي أسمعه من الأطباء عن استحالة علاجها.. ولا أبالغ لو قلت إنني في أيامها الأخيرة كنت أقضي ما يقارب 10 ساعات يوميا في البحث دون كلل أو ملل عن العلاج.. إلى أن عثرت على ما هو أشبه بالمأوى.. وأدركت حينها أن هناك أسرارا كثيرة حولنا لا ينتبه إليها الناس.. إنها فقط تنتظر بخجل أن يكتشفها أحدهم.

ما زلت أعجز عن فهم كلامه.. فنظرت إليه مستفهمة.. ليقول بحماس:

- أعرف أن كلمة (مأوى) غير واضحة وتحتمل الكثير من المعاني.. لذا سأكون أكثر دقة.. لقد عثرت على مكان مذهل أستطيع أن أعيش فيه طويلا.. طويلا جدا.. وبراحة نفسية وبدنية شديدة بلا آلام أو أمراض.. مكان تتلاشى فيه كل أعباء الإنسان.. فلا يكون بحاجة بعدها إلى أي شيء.. ولا حتى الطعام أو الماء أو السكن.. لأن هذه الأشياء لن تغدو أصلا

كمتطلبات بالنسبة له.

اهتزّت صورة السيد (إبراهيم) أمامي كثيرا.. وشعرْت أنه يخرّف.. وأن ما يقوله لا يمكن أن يكون حقيقيا.. فأخبرته صراحة أن الموت وحده هو الذي يفعل ذلك.. لكنه أكد بحرارة أنه لا يتحدث هنا عن الموت أبدا.. ثم أشار إليّ بيده أن أنتظره.. ليذهب إلى غرفته ويغيب فيها بعض الوقت.. قبل أن يعود -بخطوات حاول أن يجعلها سريعة قياسا لسنه- وهو يحمل ملفا قديما ممتلئا بالأوراق التي اتضح أنها مجموعة من الصور.. ووضع الملف أمامي وهو يطلب مني الاطلاع عليه.

فتحت الملف بتوجس لأكتشف أنه يحتوي على صور فوتوغرافية للوحات فنية كثيرة تعود كلها للأزمان القديمة والقرون الوسطى عندما كان الفنانون يمتلكون البال الرائق للرسم مهما استغرق من وقتهم.. وكل اللوحات كانت لفرسان وقصور ونمط الحياة في تلك الحقبة.. ومعظم الصور تم التقاطها في متاحف كما هو واضح من الجدران التي عُلقَت عليها وكما أكد لي السيد (إبراهيم).. فنظرْت إليه من دون فهم.. ليقول بصوت عميق:

- انظري إلى هذه الرسوم الدقيقة من القرون الوسطى.. انظري إلى هذا الكم الهائل من البشر في اللوحات.. هل ستصدقينني لو قلت لك أن بعض هؤلاء البشر أحياء بالفعل؟!.. إنهم أحياء يعيشون حياة متجمدة في تلك اللوحات.

ابتسمت بطريقة ساخرة رغما عني.. ليردف هو بجدية:

- صدقيني يا ابنتي.. أعرف جيدا وقع هذا الكلام عليكِ.. وأعرف أن الطفل نفسه لن يصدق بوجود شيء كهذا.. فيمكنك أن تتخيلي كيف كان رد فعلي عندما علمت بالأمر في المرة الأولى.. لكن.. بعد أن تتبعت القصة.. واطّلعْت على أشياء لا يعلم الناس بوجودها.. اتضحت الصورة كاملة.

لم أفهم شيئا من كلامه رغم أنني بدأت أصدق أن السيد

(إبراهيم) يحمل في جوفه سرا هائلا يبوح به للمرة الأولى.. وأمام صمتي التام.. ظل يشرح ويشرح محاولا تبسيط الأمر إلى أقصى درجة.. فكان من ضمن كلامه:

- لقد توصل شخص مجهول منذ قرون طويلة إلى طريقة يتمكن الإنسان خلالها من التخلي عن أحد أبعاده الـ 3.. فكل شيء في هذا العالم الذي نعيشه -بما فيه نحن أنفسنا- له 3 أبعاد يا عزيزتي.. طول وعرض وارتفاع.. وهذه الأبعاد الثلاثة تعيش في بعد رابع وهو الزمن.. ولو تخلّى الإنسان عن أحد أبعاده الثلاثة هذه فسيشفى من كل الأمراض البدنية وحتى النفسية.. وسيعيش سليما معافى لمئات -وربما آلاف- السنين في عالم جديد.. عالم ثنائي الأبعاد.

نظرْت إلى الرسوم في الملف.. ثم نظرت إليه بذهول وأنا أقول:

- هل تعني.. هل تعني أن....

قاطعني بابتسامة عريضة:

- نعم يا ابنتي.. كما قلت لك.. بعض من ترينهم في هذه اللوحات الفنية هم في الواقع بشر أحياء تخلوا عن أحد أبعادهم الثلاثة وعاشوا في عالمهم الجديد ثنائي الأبعاد.. فبدوا وكأنهم جزء من هذه اللوحات الفنية التي يمر الناس عليها ويرونها طوال الوقت في أهم متاحف العالم ولا يعلمون بحقيقتها.. كلامي سخيف؟!.. تظنين أنني أضحك عليكِ مستغلا صغر سنك؟!.. لا ألومك أبدا لو كان هذا ظنك.. لأنني لم أكن أصدق حرفا في البداية.. إلى أن درست الطريقة جيدا لسنوات طويلة في تلك المخطوطة المذهلة التي تمكنت من فك شفرتها بعد رحلة مضنية من البحث.. لكن هذا حدث بعد أن توفيت زوجتي للأسف وقبل أن يسعفني الوقت لإنقاذها.

سألته بذهول:

- عن أي مخطوطة تتحدث؟!.

انتبهت إلى أنه كان ممسكا بملَف آخر كبير نسبيا.. فوضعه أمامي أيضا لأرى أنه يحتوي على أوراق قام بسحبها من الشبكة العنكبوتية.. وقام أيضا بترتيبها وإحاطتها بغلاف سميك من ورق مقوى.. لأتصفحه بفضول وأرى رزمة كبيرة من الأوراق التي تحتوي على كلام ينتمي إلى لغة وصور غريبة جدا غير مفهومة.

ثم قال برهبة:

- أتحدث عن هذه المخطوطة.. أعظم كتاب خطّه

بشري في التاريخ.. (مخطوطة فوينيتش)(30) التي تحوي أسرارا لم يتمكن من فك رموزها سوى قلة قليلة جدا من البشر على مدى التاريخ.. إنها متوفرة في الشبكة العنكبوتية.. أعتقد أنني أنا وحدي في زماننا الحالي الذي تمكنت من فك رموزها بفعل ذلك الحادث الذي أصاب رأسي وزاد من ذكائي كثيرا كما شرحت لك.. فالشخص المجهول الذي قام بتأليف المخطوطة وضع فيها أسرارا مذهلة لا أعرف كيف توصل إليها.. منها طريقة التخلي عن أحد أبعادنا الثلاثة والانتقال إلى عالم ثنائي الأبعاد في أي لوحة فنية.. كأحد تلك اللوحات التي رأيتِها في الصور.. وهو ما أنوي فعله بعد قليل.. وربما ظهورك في حياتي وزيارتك المفاجئة بمثابة الرسالة.. كي آخذك معي -لو أردتِ- إلى عالم ثنائي الأبعاد الجميل لو كنت ترغبين بمرافقتي.. إنك تستحقين ذلك.

سألته غير مصدقة:

- هل تؤمن حقا بكلام كهذا؟!

رد بطريقة أبوية:

- يجب أن تفرّقي بين الإيمان والعلم يا عزيزتي.. لأن الإيمان هو الاقتناع الشخصي والتعلق العاطفي بفكرة.. أما العِلم فهو امتلاك دليل تدعمه أدوات البحث والتجربة.. وما أقوله لك

مدعوما بأدلة علمية في تلك المخطوطة ويصعب كثيرا شرحها لك بطريقة أبسط.

ثم أشار إلى تلك المنضدة الموجودة في زاوية الصالة وإلى الصندوق الذي تحدّثت عنه في زيارتي الأولى للسيد (إبراهيم).. ووصفته لكم بأنه يكفي لاحتواء قطا كاملا.. ثم أكمل:

- لقد ساعدتني المخطوطة على صنع وسيلة التخلي عن أحد أبعادنا الثلاثة.. فهذا الصندوق الذي يبدو بسيطا من الخارج.. هو في الواقع جهاز شديد التعقيد من الداخل تطلب صنعه فترة طويلة جدا رغم ذكائي الحاد.

سألته معترضة:

- وماذا عن وعينا بعد أن نتخلى عن أحد أبعادنا ونتواجد في لوحة عاجزين خلالها عن التحرك؟!.. هل سنكون أشبه بحالة الغيبوبة مثلا؟!.. يا إلهي.. لا أصدق أنني أطرح عليك سؤالا كهذا.

ابتسم وهو يقول:

- استخدامك لكلمة (وعي) غير صحيح.. فالوعي عبارة عن إدراكنا للبيئة الخارجية.. كأن نعرف موقعنا في المكان مثلا.. أما الإحساس بالذات فلا يأتي إلا بسبب قدرتنا على التفكير.. أي أنه يخص الإنسان نفسه.. وهذا الإحساس بالذات سيصل إلى أفضل درجات النقاء حين نتخلى عن أحد أبعادنا.. فلَن نشعر وقتها سوى بالسلام الداخلي بلا أي شيء آخر.. الأمر شبيه قليلا بالكهَنة وممارسو رياضة الـ(يوغا) الذين يقضون ساعات طويلة جالسين من دون حراك أو القيام بضروريات الحياة كالأكل والشرب.. وإن كانوا يضطرون بالطبع للعودة إلى حياتهم الطبيعية كونهم يعيشون في عالمنا ثلاثي الأبعاد الذي يتطلب من الإنسان مراعاة احتياجاته الأساسية.

كان يراودني الكثير من الشك رغم أنني غرقت في تفاصيل

كلامه.. فسألته:

- كيف تعرف أن أحدا غيرك لم يتوصل إلى طريقة فك رموز تلك المخطوطة وتمكن هو الآخر من التخلّي عن أحد أبعاده ليدخل إلى عالم اللوحات ثنائي الأبعاد؟!.

رد ببساطة:

- وماذا لو حدث ذلك؟!.. أين المشكلة بالضبط؟!.

لم أجب على سؤال.. ليقول هو:

- بكل تأكيد يستحيل معرفة إن كان أحد غيري قد توصل إلى فك رموز المخطوطة في زماننا الحالي.. فلا أستطيع الجزم بأنني وحدي من فعلْت ذلك.. لكن بكل تأكيد هناك من عرفوا طريقة التخلّي عن أحد أبعادهم الثلاثة في الأزمان القديمة.. لأن مؤلف المخطوطة ذكر ذلك.. إلا أن عددهم لم يكن كثيرا عموما كما ذكر هو بنفسه.. وهو الوحيد -بالمناسبة- الذي وثّق الطريقة بهذه المخطوطة التي استغرقت منه سنوات لكتابتها.. ولكن باستخدام رموز وأحرف ورسومات مجهولة كل منها له دلالة معينة لم أكن لأفهمها أبدا.. لولا الحادث الذي تعرضت له وأكسبني الذكاء الكافي كما ذكرت لك.

سألته باحثة عن ثغرة في كلامه:

- ماذا عن الثياب؟!.. هل ستكون جزءا من لوحة تم رسمها في القرون الوسطى وأنت ترتدي ثيابا تنتمي إلى هذا الزمن؟!.

رد مشيرا إليّ بسبابته وكأن سؤالي أعجبه:

- هناك لوحات فنية تاريخية عديدة لا يظهر فيها الأشخاص بصورتهم كاملة.. بل وجوههم فقط وهم وسط جموع من البشر.. وهذا ما سيحدث معي.. سأكون جزءا من لوحة فنية وسط أفواج من الناس.. ولن يظهر مني سوى وجهي.. لقد اخترت اللوحة التي سأنتقل إليها بعناية.. وإلا سيكون ظهوري

المفاجئ في لوحة قديمة وبثيابي الحالية أمرا قد يثير الانتباه بالفعل.. وإن كنت واثقا أن أحدا لن يتوقع أو حتى يتخيل الحقيقة.. سيكون الأمر مجرد لغز يعجز الناس عن حلّه.

انتهى من حديثه أخيرا.. أما أنا فقد نسيت حياتي بأكملها وأنا أستمع إليه منبهرة.. لكنه أعادني إلى عالم الواقع عندما قال بحنان:

- أنا أعرض عليك مرافقتي يا ابنتي.. سنختفي معا لينتهي بنا المطاف على لوحة فنية أثرية في أحد متاحف العالم.. ولن ينتبه أحد أبدا إلى أن عدد الأشخاص في اللوحة ارتفع إلى 2.. لأن اللوحة التي اخترتها وسننتقل إليها تحتوي على جموع من البشر وهم في أحد الأسواق القديمة.. تخيلي أننا سنظل على قيد الحياة بقدر ما تظل تلك اللوحة على قيد الحياة أيضا.. إنها لوحة تاريخية باهظة الثمن لن يتخلص منها أحد أو يتلفها.. وهذا السبيل الوحيد بالمناسبة لإنهاء حياتنا أو.. قتلنا لو أردنا الدقة.. وهذا ما يجعلني أختار لوحة تاريخية أعلم أنها ستحصل على اهتمام المسؤولين وسيحافظون عليها من التلف على مر الأزمنة.. تخيلي أن زوار المتاحف سيمرّون يوميا علينا من دون أن يتخيل أحدهم حقيقة الأمر.. سنكون في عالمنا ثنائي الأبعاد الخاص ونحن سعيدون نعيش اللحظة فقط.

غمغمت مستغربة:

- لكننا نعيش اللحظة الآن.

قال وهو يشير إليّ بسبابته:

- لا يا عزيزتي.. لا أحد في العالم يعيش اللحظة نفسها.. فأنتِ لا ترينني الآن مثلا.. بل ترين شكلي قبل جزء من مليار من الثانية.. انظري أيضا إلى شقتي.. أنت في الواقع ترين شكلها قبل 15 جزء من مليار ثانية.. ولو نظرتِ إلى الشمس.. سترين شكلها قبل 8 دقائق.. أما لو نظرتِ إلى أحد النجوم

في الفضاء.. فسترين شكله قبل آلاف السنوات.. لأن الضوء الذي يجعلنا نرى الأشياء يحتاج إلى وقت للانعكاس منها والانتقال إلى أعيننا.. ليس هذا فحسب.

سكت للحظة ملتقطا أنفاسه.. ثم أكمل باهتمام:

- بل أننا نعيش عدة أزمان في نفس الوقت.. لأنك عندما تستلقين على الشاطئ في يوم مشمس مثلا.. ستشاهدين شكل الشمس قبل 8 دقائق كما ذكرت لك.. لكنك ستشاهدين شكل البحر قبل أجزاء من مليار من الثانية.. أي أنك تشاهدين زمنين مختلفين لهما وأنتِ في نفس المكان(31).. إلا أننا حين ننتقل إلى عالم ثنائي الأبعاد.. سنرى الأشياء في وقتها الفعلي.. في لحظتها.. وأبحاثي تؤكد أن ما سنشعر به آنذاك شعور خرافي من الراحة.. تماما كشعور الطفل الرضيع النائم بسلام.. ولن نشعر أبدا برغبتنا في الحركة.. وإن كنا سنعجز عن ذلك لو حاولنا.

قلت مصدومة:

- وكيف سنُميّز بين من تخلى عن أحد أبعاده الثلاثة وأصبح جزءا من اللوحة.. وبين الشخصيات المرسومة فعليا؟!.

رد ببساطة:

- سيمكننا الشعور بوجودهم حولنا في اللوحة.. لكنا لن نتمكن من التواصل مع أحد منهم.. ولن نشعر بحاجتنا إلى ذلك أصلا.. لأن كم الراحة النفسية التي سنشعر بها لا يمكن أبدا أن يوصف.. إنه عالم بدون جوع أو عطش أو ملل أو أي مشاعر سلبية.. كما أنني -كحالك أنتِ- لا أشعر بالانتماء إلى هذا العالم وأرغب بالرحيل عنه.. إننا مجرد قطع تركيب نبحث عن مكاننا الصحيح في اللوحة الخطأ.. لكننا سننتقل إلى اللوحة الصحيحة هذه المرة.

سألته بقلق:

- ماذا عن حياتي هنا؟!.. ماذا عن أمي؟!.. هل نستطيع أخذها معنا؟!.

قال متنهدا:

- عليكِ أن تكوني مستعدة للتضحية.. فلا سبيل للعودة إلى عالمنا ثلاثي الأبعاد بعد ذلك للأسف.. والجهاز الذي قمت بصنعه لا يعمل إلا على شخص واحد -كما تشير المخطوطة- وهذا ما جعلني أتردد كثيرا في السابق قبل أن أخبرك بهذا السر.. إلى أن كشفت لي أبحاثي أن فتاة نحيلة ضئيلة في مثل سنك -ربما- لن تشكل عائقا.. لأن لك أبعادا صغيرة.. أما والدتك فأبعادها لا تختلف عن أي إنسان بالغ.. ويستحيل أن تتبعنا.. ولن يمكنني الانتظار لصنع جهاز آخر لها إلا بعد سنوات.. لأن طريقة الصنع تتطلب جهدا جبارا ووقتا طويلا.

هل هذا يعني أنني لن أرى أمي أبدا؟!.. هل هذا يعني أنني سأتخلى عنها وعن مدرستي وعالمي كله؟!.. ثم.. تذكرت أنني أكره عالمي هذا كثيرا أصلا ولا يربطني به أي شيء.. حتى علاقتي بأمي دمرها الفقر وقسوة الحياة ولم تكن بالعلاقة المتينة.. سأتعامل مع الأمر وكأنني تزوجت من رجل أعمال يقيم في دولة أخرى.. الفارق أنني لن أعود.. ولن أتمكن أبدا من التواصل مع أحد.. هذا لو كان كلام السيد (إبراهيم) صحيحا.. لكن أيا كانت النتيجة.. ستكون أفضل من حياتي هذه.

و.. كمحاولة أخيرة.. طلبت منه أن نترك لأمي رسالة على الأقل كي تستخدم الجهاز وتتبعنا.. لكنه أكد أن هذا مستحيل أيضا لأن الجهاز سيحترق بأكمله حالما ينتهي من نقلنا.. وآلية عمله صعبة جدا ومعقدة ويستحيل شرحها بطريقة مبسطة.

هل صدقت كلام السيد (إبراهيم)؟!.. كانت هناك شكوكا كثيرة تراودني.. لكني وجدت أن لا ضرر أبدا من اتباعه إلى نهاية الطريق للتأكد.. ولا أنكر أنني شعرت بالتوجس عندما طلب مني بجدية أن أقترب منه وأمسك يده.. حيث وقفنا

معا وسط صالة شقته.. ليأخذني إلى حيث ذلك الجهاز الذي صنعه هو بنفسه كما علمنا.. الجهاز الذي يبدو من الخارج مجرد صندوق خشبي.. ولا أعرف عنه سوى أنه يزيل أحد الأبعاد الثلاثة من البشر.. وينقلهم بعدها تلقائيا إلى لوحة مرسومة على السيد (إبراهيم) أن يعرف إحداثياتها جيدا كي نظهر فيها.. والأمر -كما يقول- يشبه خريطة الموقع التي نستخدمها كثيرا في هواتفنا الذكية إلا أنه أكثر تعقيدا بكثير.

سألته بقلق وأنا ممسكة بيده بقوة:

- كيف سيعمل الجهاز؟!.

رد بنفس التوتر وهو يفتح الصندوق كاشفا عن أسلاك كثيرة معقدة جدا ظل يربط بينها محاولا تشكيل عقدة نهائية منها.. ليقول وهو يتصبب عرقا:

- سنتفتت إلى أصغر وحدة قياس في الفيزياء.. وحدة يطلق عليها اسم (بلانك).. إنها الحد الفيزيائي الأدنى لصغر الأشياء.. إذ لا يمكن لأي شيء في الكون أن يكون أصغر منها(32).

سألته للمرة الأخيرة:

- هل أنت واثق من النجاح؟!.

رد متوترا:

- بصراحة -وبسبب وجودك معي- لست متأكدا تماما.. وربما يحترق الجهاز لعدم قدرته على حمل شخصين.. هناك احتمال لا بأس به أن يحدث ذلك.. إنني أضحي بالكثير.. أضحي حتى بنجاحي.. فقط لأنني أعطف عليك يا ابنتي وأريد أن أنقذك من عالمك.. إننا على بعد خطوات قليلة جدا.. عندها سنكون أحرارا من الماضي والحاضر وهموم المستقبل.

أعلم أن أمي ستظن أن هناك من خدعني وضحك علي.. وأن شيئا كهذا يفترض ألا يخدع فتاة في مثل سني.. وأنني لم أكن لأصدق أن شيئا كهذا ممكن إلا لأنني يائسة وأبحث عن

أي حل لحياتي.. لكن ما يهمني هو أن تصل إليها رسالتي لتعرف أنني لم أتعرض للاختطاف مثلا.. وقد رحلت بمحض إرادتي باحثة عن حياة أفضل.

أسمع صوت فرقعة قوية.. وشيئا ما يحيط بي.. شيئا أشبه بالهالة.. هناك سلام روحي لا يصدق يحيط بي.. كل الهموم والأحزان وكل أفكاري السلبية تتلاشى.. أشعر أنني فقدت حتى الرغبة بالتحدث.. كل ما قاله السيد (إبراهيم) حقيقي على ما يبدو.. سأرحل معه وستصبح شقته هادئة خالية بعد رحيلنا.. تاركين خلفنا هذا الصندوق الذي يحوي جهازا لن يعرف أحد أبدا حقيقته.. لكني -قبل الرحيل- حرصت أن أقوم بتسجيل قصتي كاملة في ذاكرة هاتفي.. لكي تعرف أمي أنني هاجرت من هذا العالم بإرادتي.. متجهة إلى (المأوى) كما أطلق عليه السيد (إبراهيم).. آمل أنني سأكون معه في مكان أفضل.. آمل ذلك.

لا أعرف مدى واقعية هذه النهاية

التي أصيغها لكم بنفسي..

لكنها من أجل السياق الدرامي فحسب.

في ذلك المتحف التاريخي الخاص بالفنون في إحدى الدول الأوروبية.. نرى لوحة تاريخية ثمينة جدا تنتمي للقرون الوسطى.. ظهر فيها شخصان للتو من دون أن ينتبه أحد نظرا لكثرة الرسومات البشرية في اللوحة.. ولو دققنا النظر.. سنجد رجلا عجوزا مع فتاة يقفان بين جموع الناس فلا يظهر منهما سوى وجهيهما.. إنهما بطلا قصتنا.

لكن.. أحد حراس المتحف يجول وسط زحام الزوار لتفقُّد الأوضاع كما يفعل حراس المتاحف دوما.. وقد شعر أن شيئا غريبا تغير في اللوحة أثناء مروره أمامها.. فتوقف للحظة.. ثم قرر أن هذا مجرد خداع بصري.. ليبتعد ويكمل جولته الأمنية.. في حين ظلت اللوحة في مكانها.. وبعض مَن فيها يعيشون حياتهم في عالم ثنائي الأبعاد الذي نجهل كل شيء عنه.. لكنه عالم جميل من دون شك.. أشبه بالمأوى لكل ضعيف وكل من يشعر أنه لا ينتمي إلى عالمنا هذا.. عالمنا ثلاثي الأبعاد.

الدكتور (.......)

خاتمة القصة

كما هو واضح.. لم يكن سرد القصة الأخيرة بحضور ثالث شخصيات النادي (وجن).. بل هو في الواقع تسجيل صوتي لها في ذاكرة هاتفها كما قالت بنفسها.. وقد جعلتْني والدتها أستمع إليه بالكامل على أمل أن أعثر على تفسير لما سمعته.. والتأكد إن كان هناك من خدع ابنتها بهذه التفاصيل الدقيقة المُحكمة.. فأخبرتها صراحة أن القصة غريبة جدا ومن العسير على أي إنسان تصديقها.. لكني أيضا استمعت خلال مسيرتي المهنية إلى قصص تعادل غرابتها.. وقد تكون أغرب منها.. وأنا لن أكذِّب هذه القصة فقط لأنها لا تروق لي أو لأنها صعبة التصديق.

هذا ما قلته للسيدة والدة (وجن) التي أكدَت لي أنها قدمت بلاغا رسميا إلى الشرطة عن غياب ابنتها.. وجعلتهم يستمعون كذلك إلى التسجيل الصوتي كاملا.. لكن أحدا منهم لم يصدق.. وظنوا أنها مجرد فتاة مراهقة ساذجة وقعت ضحية لذلك المدعو (إبراهيم).. إلا أنهم أيضا لم يعثروا على (وجن) أبدا بعد مرور شهور على تلك القصة.. لذا تظل الأسئلة مطروحة ويستحيل أن نعثر على إجابة مؤكدة.

ويبدو أن كلامي لم يعجب السيدة والدة (وجن) كثيرا كوني لم أقدم لها جوابا شافيا.. لكني لا أمارس السحر هنا.. وإنما أبدي آرائي حسب معطيات الأحداث التي وصلَت إليّ.. ويجب أن أعترف هنا أنّ صوت الفرقعة الذي سمعته في التسجيل كانت له هيبة شديدة والحق يقال.. خاصة مع ما لحقه من هدوء ساد المكان بالكامل.. فلا تسمع سوى صوت الفراغ الذي يمتد لفترة ليست بالقصيرة قبل أن تنفد بطارية الهاتف.

لقد حاول رجال الشرطة استجواب أهالي العمارة حول اختفاء (وجن).. وعندما وصلوا إلى شقة السيد (إبراهيم) لاستجوابه.. طرقوا الباب كثيرا من دون إجابة.. فقاموا باقتحام المكان

خوفا من أن يكون الرجل قد تعرض لمكروه مثلا.. خاصة بعد أن أكد لهم سكان العمارة أنه يعيش وحيدا ولا يخرج من شقته تقريبا.. فعثروا على هاتف (وجن) واستمعوا إلى تسجيلها الصوتي قبل أن يعيدوا الهاتف إلى والدتها.. لأستمع أنا أيضا إلى تسجيلها الصوتي وقد أفرغته لكم بالكامل على الورق.. مع بعض التعديل من أجل الحبكة الدرامية.

خاتمة الليلة

ها قد وصلنا إلى نهاية ليلتنا الطويلة.. فقد بدأنا منذ العاشرة مساء حسبما أذكر.. والآن الساعة تتجاوز الواحدة والنصف فجرا.. حيث عشت الساعات الماضية في عالم آخر أنساني تماما كل ما يتعلق بحياتنا اليومية التقليدية.. فظللت أستمع باهتمام شديد إلى قصة (غدي) و(ليال) وأخيرا قصة (وجن) التي قدمَتْها لنا بتسجيل صوتي من هاتفها سمحت لنا والدتها بالاستماع إليه كاملا كما أشرت لكم.

والواقع أنني لم أجد أي فائدة لوجودي هذه الليلة في نادي (ملاذ).. بعد أن انتهت كل قصة بطريقة لا تسمح لي أبدا بالمساعدة أو حتى لإبداء رأي ذي قيمة.. ففي القصة الأولى التي أراها مرعبة ومقززة بعض الشيء.. أخذت (غدي) حقها كاملا من شقيقها الذي تملّكتهُ أسوأ الصفات البشرية على الإطلاق.. الطمع والحقد.. وقد استغل الصفتين لصالحه عندما حصل على السُّلطة العائلية فدمر شقيقته تماما وسلب منها كل شيء.. لكنها تمكنت من النجاة وكان انتقامها منه شديد البشاعة بالفعل متفوقا على أكثر الأفلام رعبا.. وما زالت الصور الذهنية تمر في عقلي متخيلا حياة (غدي) في ذلك السجن لحوالي 7 سنوات.

لكني سعيد عموما أنها بخير الآن.. وإن كنت قد وضحت لها نقطة هامة.. بأنها الآن ليست شُجاعة كما تصف نفسها.. بل هي لا تخشى شيئا.. والفارق كبير بين الشجاعة وعدم الخوف.. فالشجاعة هي الإقدام على الخطر عند الضرورة رغم إدراك العواقب المحتملة.. أما (عدم الخوف) فهو يدل غالبا على اضطراب في الشخصية والمبالغة في تقدير القوة.. وهذا ما جعلني أطلب من (غدي) زيارتي في المستشفى على أمل علاجها.

أما القصة الثانية فقد أثارت عندي تساؤلات كثيرة.. وظننتها

في فترة من الفترات متعلقة بالأشباح أو الجن.. لكني سعيد أيضا أنها انتهت بطريقة مُرضية جعلَت (ليال) تتخلص من حالة (فوبيا) التحديق التي أصيبت بها وعانت بسببها كثيرا كما تبين لنا في سياق القصة.. وهي بوجهة نظري أقل القصص معاناة وقسوة لو قارنّاها بالقصتين بالسابقتين بما أن (ليال) تعيش الآن حياة مستقرة هادئة في بيت الزوجية كما أكدّت لنا.

أما القصة الثالثة والتي وصلَت إلينا بتسجيل صوتي من (وجن).. فكما ذكرْت في خاتمتها أنني لا يمكن أن أجزم بمدى مصداقيتها.. ولا أعلم إن كان ما ذكرَتْه (وجن) في تسجيلها الصوتي حقيقيا.. لكن سردها كان محكما للغاية مع سياق الأحداث وصوت الفرقعة في النهاية.. وأخيرا اختفاؤها مع السيد (إبراهيم).. كل هذه الأمور تثير تساؤلاتي بالفعل.. بالإضافة إلى أنه من العسير على فتاة بهذه السن أن تأتي بمعلومات علمية متداخلة ومعقدة يجهلها عامة الناس عادة.. حتى في ظل وجود شبكة المعلومات.. لكن لا يوجد ما أستطيع فعله لوالدتها في كل الأحوال.. فحتى لو كانت (وجن) قد كذبت بوسيلة ما وهربت مثلا.. سيكون هذا دور الشرطة في البحث عنها وليس دوري أنا.

ولا أنسى هنا أن كل ضيفة في هذه الأمسية الجديدة من نادي (ملاذ) قد أبدت رأيها بالقصتين الأخريين وتفاعلت معها كثيرا.. لكن الآراء عموما كانت انفعالية وعاطفية مع كلمات تحفيزية لن أزعجكم بها.. إلا أن (غدي) و(ليال) أكدتا للسيدة والدة (وجن) أنهما قادرتان على مساعدتها ماليا بين حين وآخر مع وجود زوجها في السجن وانتقالها للإقامة مع أسرة صغيرة من الجيران بمقابل معقول.. وهي مستمرة في عملها في تنظيف البيوت وبعض جمعيات النفع العام.. وهو عمل مقابل أجر كما هو حالها دوما.. أي أنها لا تعمل في وظيفة محددة بدخل ثابت.

وقد طلبْت من السيدة والدة (وجن) بياناتها الخاصة كي أقدم لها مساعدة مالية بدوري.. وأقول هذا الكلام كي لا يوجه لي أحدكم اللوم أنني لم أمد لها يد العون كما فعلت (غدي) و(ليال).. إلا أنّ المسكينة تعيش بقلب مكسور بسبب ما حدث لزوجها واختفاء ابنتها التي ظُلِمت كثيرا في حياتها.

لقد تابعنا معا حوادث على لسان أصحابها.. بعضها لا يمكن تفسيره.. وبعضها عسير التصديق.. لكني أعترف أن القصص محبوكة بطريقة ذكية.. ولو كانت مجرّد أكاذيب.. فسيتوجب على الضيوف(33) أن يدخلن مجال التأليف كحال كبار المؤلفين.

ويجب أن أكشف الآن أن (غدي) كانت قد قامت بزيارة إحدى جمعيات النفع العام لحضور ندوة عن التنمية البشرية.. والتقت بالسيدة والدة (وجن) التي تُصادَف وجودها هناك لأعمال التنظيف.. حيث تعارفتا هناك.. ليجر كلامهما كلاما آخر.. وآخر.. لتتحدث الأخيرة عن ابنتها التي اختفت منذ شهور ولم تعثر عليها بعد.

وقد أثارت القصة اهتمام (غدي) كثيرا.. مما أوحى لها بزيارتي في المستشفى لتطلب مني جلسة جديدة لنادي (ملاذ) بعد أن قرأت الجزء الأول كما تقول.. لكني أخبرتها مؤكدا أنه من الأفضل أن تكون هناك 3 فتيات أيضا مثلما حدث في الجلسة الأولى.. وأن عليها أن تبحث عن فتاة ثالثة عاشت تجربة تستحق أن تشاركنا إياها.. فأخبرتني أن هناك فتاة ثالثة بالفعل التقت بها في إحدى وسائل التواصل الاجتماعي وقد عاشت بدورها تجربة فريدة من نوعها تستحق أن تكون ضيفتنا الثالثة.. وهي (ليال) بالطبع.

المهم أن الأمسية انتهت الآن.. آملا أن تكون القصص أكثر امتاعا من الجزء الأول.. أو على الأقل بنفس المستوى.. وأعتقد أن هذه مجرد بداية لأجزاء أخرى وأخرى لنادي العلاج النفسي

الجماعي (ملاذ).. والذي لا يتطلب كي تشارك فيه.. سوى أن تكون شخصا تشعر بالوحدة وقد عشت تجربة غريبة وتحتاج إلى من يستمع إليك.. وربما ستحصل أيضا على نصيحة جيدة مني أو من أحد الضيوف إلى جانب فائدة الفضفضة التي ستشعرك وكأنك ألقيت حملا ثقيلا عن كاهلك.

كما نصحت الضيوف الـ3 أن تظل شخصياتهن مجهولة لبعض وألا يزيد تقاربهن عن ذلك.. فهذا أفضل لهنّ.. أقولها عن خبرة ومعرفة في النفس البشرية.. لأن غالبية العلاقات تسوء حين يتم التقارب.. ومن الممكن جدا أن يستغل أحدهم عيوب الآخر في حال نشوب أي خلاف.. كما أن نادي (ملاذ) يُفترض أن يكون أشبه برحلة روحانية يعتزم خلالها الفرد على تغيير تفكيره ونظرته للحياة من خلال الاستماع للآخرين.. هناك مصطلح إغريقي لوصف ذلك.. أعتقد أنه (ميتانويا) (Metanoia)(34).

ولم أنسَ أن أمنح الضيوف نصيحة أرددها أحيانا بيني وبين نفسي.. أنّ لا أحد منا يعيش حياة سهلة.. وغالبا ما يتوجب علينا السباحة عكس التيار.. لكن علينا أيضا أن نكون مختلفين بطموحنا وإصرارنا.. وأن نذكّر أنفسنا باستمرار أننا لا ننتمي أبدا إلى القاع.. والقاع ليس بالضرورة أن يكون الفقر.. بل حين نصبح نسخة سيئة جدا من أنفسنا.. نسخة نبغضها لكننا نعجز عن التخلي عنها بسبب وجودنا في دائرة المألوف وعدم رغبتنا بالقتال لتغيير الواقع.. وإنما ننتظر بالمقابل أن يأتي التغيير من خلال معجزة ما.. فحتى لو كانت المعجزات تحدث في حالات استثنائية جدا كما هو الحال مع (وجن) -لو كانت قصتها حقيقية- إلا أن هذا لا يعني الجلوس والحسرة والانتظار.. لأن الانتظار سيأخذ منا أعمارنا.. ويجعلنا في حالة انحدار مستمر.

وفي الختام.. قمت بتوجيه بعض كلمات الوداع والمجاملة إلى (غدي) و(ليال) والسيدة والدة (وجن) محاولا تذكيرهن بنصيحتي.. وأن يدركن أنهن محظوظات بالفعل لأنهن تجاوزن تجارب عسيرة تباينت قسوتها من قصة لأخرى.. آملا أن تجمَّعنا

أتى بثمار إيجابية عليهن.. متسائلا إن كنت سأستضيف في مرات قادمة مجموعة أخرى من الإناث.. أو حتى الذكور.. فالباب سيكون مفتوحا لذلك.. وقد نرى في المستقبل القريب جزءا ثالثا من هذا التجمّع الذي بدأ يترك أثرا إيجابيا في نفوس القراء.. التجمّع أو النادي الذي أطلقنا عليه ذلك الاسم الجميل الذي يحمل في طياته الغموض والراحة النفسية في آنٍ واحد.. نادي (ملاذ).

إصدارات المؤلف:

1) وراء الباب المغلق (2000)

2) خلف أسوار العلم (2002)

3) الأبعاد المجهولة (2004)

4) الأبعاد المجهولة 2 (2006)

5) في الجانب المظلم (2008)

6) حكايات من العالم الآخر (2008)

7) 17 (2008)

8) زيارات ليلية (2009)

9) رسائل الخوف (2010)

10) بعد منتصف الليل (2012)

11) منطقة الغموض (2012)

12) حالات نادرة (2012)

13) حالات نادرة 2 (2013)

14) حالات نادرة 3 (2014)

15) الأبعاد المجهولة 3 (2014)

16) متحف الأرواح (2015)

17) حالات نادرة 4 (2016)

18) قصص.. لا يسمحون لي بنشرها (2017)

19) مخطوطات مدفونة (2018)

20) ملاذ (2018)

21) المُعقَّد (2019)

22) حالات نادرة 5 (2020)

23) جرعة زائدة (2020)

24) حالات نادرة 6 (2021)

25) نهايات غير متوقعة (2022)

26) حالات نادرة 7 (2023)

27) 18 (2024)

28) ملاذ 2 (2024)

للتواصل مع المؤلف

Email : kuwaiti27@hotmail.com
X : @Abdul_Alrifaee
Instagram : abdul_alrifaee
Snapchat : alrifaee
TikTok : @abdul_alrifaee
Threads : abdul_alrifaee
Telegram : @Abdul_Alrifaee73

---

(1) (متلازمة العش الفارغ) (Empty Nest Syndrome) تطلق على الوالدين اللذين يزوجان جميع الأبناء.. فيخلو بيت العائلة بعد أن كان عامرا بالحياة.. ليشعرا بالوحدة والفقد.. خصوصا إذا انقطع الأبناء عن زيارتهما أو انشغلوا عنهما.

(2) اكتئاب الشتاء ليس مقصورا على المناطق الثلجية كما قد يظن البعض.. فهو يصيب من يعيشون في المناطق الاستوائية أيضا.. وذلك لعدة أسباب.. أهمها قصر ساعات النهار وقلة التعرض للشمس.. وبالمقابل طول ساعات الليل التي يزيد فيها هرمون الـ(ميلاتونين) الذي يتم إفرازه في الدماغ ويتسبب برغبة الإنسان بالنوم.. فيصاب الجسم بالخمول والانخفاض في النشاط.. بالإضافة إلى التقلبات المزاجية.. وهذا تحديدا السبب الرئيسي لصعوبة الاستيقاظ من النوم باكرا في فصل الشتاء.. وللعلم فإن إفراز هرمون (الميلاتونين) يقل مع التقدم في العمر.. لذا يتم توفيره في الصيدليات كمكمّل غذائي على هيئة أقراص أو كبسولات.

(3) بإمكانك قراءة سلسلة (حالات نادرة).. وهي -بالمناسبة- منفصلة وغير مرتبطة ببعضها.. فيمكنك البدء من أي جزء تختاره.. كما وجب التنويه أيضا أنها غير مرتبطة بالإصدار الذي بين يديك.

(4) العقل الجمعي ظاهرة نفسية يَفترِض فيها الناس أن تصرفات الجماعة في مواقف معينة تعكس سلوكا صحيحا دائما.. بدافع الافتراض أن الأغلبية دائما على حق.. وللعقل الجمعي سطوة مرعبة على الفرد

قد تجبره أحيانا إلى الانصياع أو الانحياز إلى آراء خاطئة لا يقبلها.. فقط لإرضاء الجماعة.. ولكي يظل مقبولا محبوبا بين أفرادها.. وإلا ستتم مهاجمته بسبب اختلافه من دون حتى مراجعة أفكاره أو مناقشتها.

(5) رغم أنني ذكرت الفارق بين الطبيب النفسي والاستشاري النفسي في مناسبات ماضية.. إلا أنه لا بأس من الإعادة للتذكير والفائدة.. فالطبيب النفسي يدرس في كلية الطب ثم يتخصص في الطب النفسي.. ويكون تركيزه الأكبر على الجانب البيولوجي والعضوي للمريض والمتمثل غالبا بالدماغ.. كما أنه يعالج الأمراض النفسية في حالتها المتفاقمة والمتأخرة نسبيا.. وهو المخوّل بصرف الأدوية النفسية للمريض.. أما الاستشاري النفسي فهو الذي يتخصص في علم النفس -وليس الطب النفسي- ويركز على السلوكيات والمشاعر والأفكار ويعالج الاضطرابات الخفيفة من خلال الجلسات.. فيساعد على تعديل السلوك وتغيير أنماط التفكير الخاطئ.

(6) اضطراب (الشخصية النرجسية) نوع من أنواع اضطرابات الشخصية.. حيث يتملك المريض شعورا مبالغا فيه بأهميته وحاجته الماسة -بنفس الوقت- إلى جذب إعجاب الآخرين.. ويعيش ذو الشخصية النرجسية غالبا علاقات مضطربة بسبب ثقته الضعيفة بنفسه وانعدام تعاطفه مع الآخرين محاولا استغلالهم دوما للوصول إلى أهدافه.. كما تسيطر عليه أيضا عقدة الاستعلاء على من يشعر أنهم أدنى منه.. فيمارس معهم التنمُّر والقسوة والتنقص المستمر لإخفاء مشاعر الدونية التي تسيطر عليه.. ومشكلة المصاب باضطراب الشخصية النرجسية أنه لا يرى أبدا أن الخطأ يكمن فيه.. لذا غالبا لا تجده يبحث عن علاج لنفسه.

(7) حقيقة للأسف.. والحسابات الإخبارية في وسائل التواصل الاجتماعي تمتلئ بقصص كهذه بالفعل.

(8) تم ذكر كلمة (فأر) وكلمة (جرذ) في القصة.. لذا علينا توضيح الفارق بينهما.. فالفأر (Mouse) يتراوح طوله عادة ما بين 10 إلى 20 سم تقريبا -بما في ذلك الذيل- ويتميز برأس صغير وأقدام صغيرة وذيل مدبب وآذان كبيرة.. ويصل وزنه إلى 15 جرام.. ويتراوح لونه بين الأبيض والبُنّي والرمادي.. ومتوسط دورة حياته لا تتجاوز 3 شهور.. علما بأن هناك أنواعا كثيرة من الفئران.. إلا أن الاختلافات بينها بسيطة.. أما الجرذ (Rat) فهو أكبر حجما بكثير ويمكن تمييزه بسهولة عن الفأر.. وقد يصل وزن الجرذ أحيانا إلى 300 جرام.. كما أن له آذان صغيرة وذيل طويل وجسم بُنّي يميل إلى السواد.. وكما هو الحال مع الفئران.. فهناك أنواع كثيرة أيضا من الجرذان.. إلا أن الاختلافات بينها بسيطة كذلك.

(9) حادثة حقيقية.. علما بأن لقطة سرقة الجرذ لعقد الألماس متداولة

بكثرة على مواقع التواصل الاجتماعي.

(10) حادثة حقيقية جرت منذ سنوات قليلة.

(11) خرافة شهيرة تنتشر بين الناس بالفعل.

(12) يجهل الكثيرون أن هناك أكثر من 40 ألف نوع من العناكب.. ويطلق على الذكر اسم (عنكب) أما أنثاه فهي (العنكبوت).. وهي التي تبني البيت من خلال مغزل خاص في نهاية بطنها.. وتعتبر خيوط العناكب من أقوى الألياف الطبيعية.. لكن الإنسان يستخدم خيوط دودة القز بالمقابل بسبب صعوبة تهيئة مَزارع للعناكب كما هو الحال مع دودة القز.. فالعنكبوت كائن يعيش منفردا بطبيعته.. ويجب أن نذكر هنا أن العناكب لا تسبب الضرر للإنسان باستثناء 200 نوع فقط.. أشهرها الأرملة السوداء.. وتتباين أحجام العناكب بصورة كبيرة.. فقد تكون صغيرة جدا بحجم 2.0 ملليمتر.. وقد يصل حجمها إلى 339 ملليمتر وهو أكبر عنكبوت تم العثور عليه حتى الآن.. وتعيش معظم العناكب قرابة العامين.. في حين تعيش أنواع أخرى حوالي 20 عاما لو تم أسرها والعناية بها.. أما كمية البيض الذي تطرحه العناكب فيعتمد على حجمها.. وكلما صغر حجمها.. قل عدد بيضها.. لكن العناكب المنزلية عموما تبيض حوالي 250 بيضة في السنة.. تفقس في غضون أسبوعين أو 3 أسابيع أحيانا حسب نوع العنكبوت أيضا.. ورغم أن العناكب مخلوقات غير محببة لدى الإنسان.. إلا أنها صديقة له.. لأنها تقضي معظم وقتها في اصطياد الحشرات.. ولولاها لتكاثرت الحشرات وأتت على الأخضر واليابس.

(13) حقيقة.

(14) عادة ما تكون لدغة العنكبوت بسيطة ولا تختلف عن لدغة أي حشرة أخرى غير ضارة.. فأحيانا تسبب احمرارا مثيرا للحكة.. أو نتوءا مؤلما قليلا على الجلد.. وأحيانا كثيرة أخرى لا يشعر الإنسان أصلا بأنه تعرض للدغة من العناكب.. وغالبا ما يختفي أثر اللدغة لاحقا من تلقاء نفسه.

(15) بعد الثورة الفرنسية التي غيرت شكل أوروبا وقادتها إلى ما هي عليه اليوم من تقدم في كل المجالات.. تم استخدام الورقة التي تحمل رقم (1) (Ace) كأعلى رقم في لعب الورق.. واعتبارها رمزا لبروز وصعود الطبقة الأدنى من الشعب على نظام الحكم.

(16) رغم أنه قد تم التطرق لـ(فوبيا) في بعض إصدارات المؤلف السابقة.. إلا أنه يفضل تذكير القارئ العزيز بتلك المعلومات في هذه القصة أيضا.. فالـ(فوبيا) (Phobia) -أو (الرهاب) باللغة العربية- هو اضطراب نفسي يتمثل في الخوف الشديد وغير المنطقي من أشياء أو مواقف

معينة.. حيث يختفي هذا الخوف مباشرة بمجرد ابتعاد المسببات.. وتختلف شدة الـ(فوبيا) من شخص لآخر.. فقد يتراوح تأثيرها من مجرد إزعاج بسيط إلى خوف شديد قد يصل إلى التعرض للإغماء أحيانا.. أو حتى الوفاة في بعض الحالات النادرة.. وغالبا ما يدرك المريض أن خوفه هذا غير منطقي ولا يسبب له أي خطر حقيقي.. لكنه لا يستطيع التخلص منه إلا بواسطة طبيب مختص.. وجدير بالذكر أن قائمة مسببات الـ(فوبيا) طويلة وتتزايد باستمرار في التقارير الرسمية.. حتى تجاوز عددها حتى الآن حوالي 500 نوع.. منها الخوف من الحيوانات والحشرات والمرتفعات والحقن الطبية والغرق والإزعاج والطيران والكتب والشمس والأماكن الضيقة.. إلخ.. ومن الممكن الاطلاع على القائمة كاملة في المواقع الطبية المتخصصة في شبكة المعلومات.. وبقي أن نذكر أن كلمة (Phobia) مشتقة من كلمة (phobos) باللغة اللاتينية وتعني (خوف).

(17) (المُترصِّد) أو (Stalker) هو الشخص الذي يلاحق شخصا آخر باستمرار وهوس واضحين.. ويتدخل في تفاصيل حياته إلى درجة المضايقة الشديدة وإنزال الرعب في قلبه.. وأحيانا قد يلجأ إلى العنف لو فقد الأمل في جذب انتباه من يلاحق.. وغالبا ما يعاني المُترصّد اضطرابا نفسيا شديدا يتمثل بالنقص وتدني احترام الذات أو انعدام الأمان.. علما بأنه قد يكون من أقارب الضحية وليس بالضرورة شخصا غريبا عنها.. ويعتبر الترصُّد جريمة في الكثير من الدول ويتم التعامل معه بصرامة.. ويجب أن نذكر هنا أن الترصّد سلوك قد يمارسه الذكر أو الأنثى.. وليس بالضرورة أن يكون بسبب الحب والرغبة في الارتباط مثلا.. فأحيانا قد يكون سببه الإعجاب الشديد بنجم سينمائي.. أو مطرب.. أو لاعب كرة.. إلخ.

(18) (سكوبوفوبيا) (Scopophobia) هو الخوف المفرط من التحديق.. ويجب أن نذكر هنا أنه من الطبيعي أن يشعر المرء بالقلق أو الارتباك في مواقف يكون فيها محط اهتمام وأنظار الآخرين مثلما يحدث عند الأداء المسرحي مثلا.. أو عند التحدث أمام مجموعة من الناس.. إلا أن حالة الـ(سكوبوفوبيا) تتخطى تلك المشاعر.. فالخوف هنا -ككل حالات الـ(فوبيا)- يكون أكبر بكثير ويصل إلى الحد الذي يمنع المرء من ممارسة حياته الطبيعية في المواقف الاجتماعية كما حدث مع بطلة قصتنا.. فيبدأ وجه المريض بالاحمرار خجلا.. وتتسارع دقات قلبه.. ويبدأ جسده بالارتجاف مع التعرّق الشديد.. ويصاب أيضا بجفاف الفم.. وغالبا ما يكون العلاج السلوكي المعرفي من خلال جلسات نفسية هو الحل الأمثل للحالات المبكّرة من جميع حالات الـ(فوبيا) عموما.. أما الحالات المتأخرة فتتطلب العلاج الدوائي.

(19) (وهم برنامج ترومان) (Truman Show Delusion) مصطلح غير أكاديمي ولم يتم الاعتراف به رسميا حتى الآن في مراجع الطب النفسي.. وكما هو مذكور في القصة فإنه عبارة عن نوع من الوهم يَعتقد فيه

الإنسان أن حياته عبارة عن عرض لتلفزيون الواقع من دون علمه.. فيشعر أن هناك كاميرات كثيرة صغيرة تحيط به من كل مكان وتراقب أفعاله.. في حين أن جميع أصدقائه وأفراد عائلته وزملائه هم في واقع الأمر ممثلون يقومون بأدوارهم تجاهه أيضا.. وقد تمت صياغة هذا المصطلح عام 2008 من قبل الأخوين الباحثين (جويل جولد) (Joel Gold) وإيان جولد (Ian Gold).. نسبة إلى الفيلم الرائع (The Truman Show) كما ذكرَت بطلة القصة.. وهو من إنتاج عام 1998.

(20) الـ (فصام) أو (السكيزوفرينيا) (Schizophrenia) اضطراب نفسي خطير يتسبب بسلوك اجتماعي غير طبيعي وفشل في تمييز الواقع.. إذ تشمل أعراضه الوهم والهلوسة السمعية -أي سماع أصوات غير حقيقية- بالإضافة إلى انخفاض المشاركة الاجتماعية وسوء التعبير العاطفي وضعف الإرادة والإيمان بمعتقدات زائفة.. مع تدني الوظائف الذهنية عموما.. مما يؤدي إلى مشاكل في ممارسة الحياة اليومية.. أما أسباب الـ(فصام) فلا تزال غير مؤكدة.. لكن المرجح أنها تتعلق بعوامل وراثية أو بيولوجية تتسبب بحدوث تغيير في آلية عمل الدماغ.. كالتعرض للإصابة في الرأس جراء حادث مثلا.. أو المرور بصدمة نفسية كبيرة.. أو حتى إدمان المخدرات.. وتعتبر الأدوية النفسية ركيزة أساسية وهامة جدا في علاج الـ(فصام) إلى جانب تغييرات جذرية في سلوكيات المريض عليه القيام بها بناء على توصيات المعالج النفسي.. ويجب التنويه إلى أن الـ(فصام) يختلف عن (ازدواج الشخصية) أو (اضطراب انفصال الهوية) (Dissociative Identity Disorder) الذي يظهر خلاله المريض بأكثر من شخصية.

(21) حقيقة بالطبع.

(22) نوبة الهلع (Panic Attack) -كما هو واضح من الاسم- عبارة عن شعور قوي ومفاجئ من الخوف الشديد الذي يصيب الإنسان ويحفز ردود أفعاله الجسمانية.. تماما كما يحدث أثناء وجود ما قد يهدد حياته أو مصيره.. فمعدل خفقان القلب يرتفع.. ويتعرق الجسم بشدة مع رعشة يصعب التحكم فيها.. بالإضافة إلى تقلّص في البطن وآلام في الصدر مع الغثيان والدوار القوي الذي يجعل المرء قريبا من الإغماء.. ويصاحب ذلك أحيانا الخدر الشديد أو الإحساس بالوخز.. ويصاب الكثيرون بنوبة الهلع مرة أو مرتين على الأقل في حياتهم عند مرورهم بموقف عصيب أو بعد الانتهاء منه مباشرة.. أما من يصاب بنوبات هلع متكررة وغير متوقعة ويقضي الأوقات الأخرى قلقا مترقبا النوبة القادمة.. فهو مريض نفسي مصاب بما يسمى بـ(اضطراب نوبات الهلع).. وغالبا ما يتم علاجه بواسطة الأدوية النفسية.. أو حتى بواسطة جلسات علاجية لو كانت النوبات محدودة ولا تتكرر كثيرا.

(23) يجب أن نذكر هنا أن الجزء الملوّن من العين يسمى (القزَحيّة).. وهذه (القزَحيّة) تحتوي على مادة الـ(ميلانين) التي تحدد لون العين.. فكلما زاد تركيزها.. كان لون (القزَحيّة) غامقا أكثر.. وهناك 6 ألوان رئيسية لـ(القزَحيّة).. وهي العنبر والأزرق والبني والرمادي والأخضر والبندق.. وتلك الألوان تتدرج وتتباين من شخص لآخر.. وبالتالي فإن لون العيون يتباين كثيرا من شخص لآخر.. وتوجد ألوان أخرى نادرة جدا للعيون.. منها اللون الأسود.. وربما تعتقد أنك قابلت الكثيرين الذين يحملون عيونا سوداء.. لكن الحقيقة أن هذا اللون هو مجرد لون بني غامق للغاية.. أما اللون الأسود فهو من ألوان العيون النادرة جدا ولا يمكن تمييزه بسهولة.. وهناك أيضا اللون الأحمر والوردي والبنفسجي الذين لا يعرف الكثيرون بوجودهم.. إذ يتسبب (المهق) بهذه الألوان الغريبة.. والـ(مهق) أو (البرَص) أو (الابيضاض) هو اضطراب خلقي يتسبب بغياب كامل أو جزئي للتصبُّغ في الجلد والشعر والعينين.. فيمنح العينين لونا غريبا غير مألوف.. وفي حالات أخرى يتسرَّب الدم إلى قزحية العين ليمنحها أيضا تلك الألوان الغريبة.. إلا أنه من الممكن تغيير لون العين بحسب رغبة الإنسان من خلال تقنية جراحية تتمثل بعمل شق صغير جدا في القرنية ثم يتم زراعة عدسات ملونة مرنة ورقيقة داخل العين.

(24) حقيقة للأسف.

(25) تتحدث عن الفيلم الرائع (Leon: The Proffesional) إنتاج عام 1994.

(26) لفظة (Guru) تطلق على من لديه معرفة عميقة وحكمة ومرجعية يستخدمها في مجال إرشاد الآخرين.. والكلمة مشتقة من لغة (الهند) القديمة.. وهي (اللغة السنسكريتية). فـ(Gu) تعني الظلام.. و(Ru) تعني مبدد.. أي (مبدد الظلام).

(27) يتحدث هنا (جيسون بادجيت) (Jason Padgett) وهو مجرد بائع أثاث بسيط تغيرت حياته عام 2012 بعد أن داهمه شخصان في أحد الشوارع بغرض سرقته.. حيث قاما بالاعتداء عليه وتعرض رأسه لإصابات عديدة.. فأنقذه بعض المارة وقاموا بنقله إلى المستشفى ليتم علاجه بعد ذلك.. وبعد أقل من أسبوع.. بدأ (جيسون) يرى العالم بصورة مختلفة.. واكتشف أنه أصبح أكثر ذكاء إلى درجة أنه أصبح قادرا على رسم أشكال هندسية مميزة للغاية لم يكن قادرا على رسمها من قبل.. فتم إخضاعه لفحوصات أظهرت أن الضربات التي تعرض لها تسببت بتدفُّق الأكسجين إلى أماكن لا يصل إليها عادة في دماغ الإنسان.. مما نتج عن ذلك فاعلية فيزيائية وزيادة هائلة في القدرات العصبية مع تغيير جذري في الحركة الكهربائية.. أي أن عمل الدماغ أصبح أسرع وأفضل.

(28) يتكون جسم الإنسان من أعداد هائلة من الخلايا.. كل مجموعة منها تقوم بنفس الدور تقريبا.. مثل خلايا الجلد وخلايا القلب وخلايا الكبد.. إلخ.. فهذه الخلايا تقوم بالانقسام والنمو بطريقة منتظمة للحفاظ على جسم صحي وسليم.. لكن -وبسبب خلل غير مفهوم- يحدث أحيانا نمو غير منتظم للخلايا في جزء من أجزاء الجسم.. ويؤدي ذلك إلى تكوّن الأورام (Tumors) التي تتلف كل ما هو حولها من أنسجة وأعضاء الجسم.. وهو ما يطلق عليه الـ(سرطان).. والذي يعتبر من أكبر مسببات الوفاة في العالم.. إلا أن معدلات العلاج باتت تشهد تقدما ملحوظا في السنوات الأخيرة بفضل التحسينات التي تشهدها طرق الكشف عن الـ(سرطان) وعلاجه والوقاية منه.. وتعتبر علامات الإصابة بالـ(سرطان) كثيرة وتختلف تبعا للجزء المصاب من الجسم.. فأحيانا تتمثل بالشعور العام بالإرهاق.. أو وجود منطقة سميكة يمكن الشعور بها تحت الجلد.. أو تغيرات في الوزن سواء زيادة أو نقصان.. أو تغييرات في لون الجلد.. أو الإصابة بتقرحات لا تلتئم.. إلخ.. وختاما.. لا يقتصر السرطان على الإنسان.. فمن الممكن أن يصيب الحيوانات والكائنات الحية الأخرى كذلك.

(29) أجرى مجموعة من العلماء في (أستراليا) عدة تجارب لدراسة تأثير ظروف انعدام الجاذبية في نمو وتطور الخلايا السرطانية.. حيث قاموا باستحداث ظروف تنعدم فيها الجاذبية.. وزرعوا فيها خلايا سرطانية.. وبعد مضي 24 ساعة فقط.. ماتت أكثر من 80% من الخلايا السرطانية.. أي أن انخفاض الجاذبية يتسبب بخلل في آلية الاتصال بين الخلايا.. مما يؤدي إلى موت الخلايا السرطانية.. ويأمل العلماء أن يسمح هذا الاكتشاف المهم بابتكار دواء لعلاج السرطان يحاكي مفعوله انعدام الجاذبية.

(30) تعتبر (مخطوطة فوينيتش) (Voynich Manuscript) من الألغاز التاريخية شديدة الغموض والتي لم يتوصل أحد إلى أي تفسير لها حتى الآن.. ومخطوطة (فوينيتش) هذه عبارة عن كتاب قديم جدا.. يتكون من حوالي 240 صفحة كتبه أحدهم بخط اليد على رقْع من الجلد في الفترة 1404-1438 ميلادية حسب تقدير الخبراء.. والغريب في الكتاب هو اللغة التي استُخدِمت لكتابته.. فهي لغة مجهولة لا تنتمي لأي حضارة.. هذا بالإضافة إلى الرسومات المتنوعة التي تملأ صفحاته لمخلوقات بشرية وما يشبه النباتات والبذور مع أشكال هندسية أخرى غير مفهومة.. وكأنه موسوعة متكاملة جاءت لنا من عالم آخر مختلف.. علما بأن بعض الصفحات مطويّة وممكن فتحها لتشكّل خريطة كبيرة لرموز ورسومات أكثر غرابة.. وقد حمل الكتاب اسم (مخطوطة فوينيتش) نسبة إلى (ويلفريد فوينيتش).. الشخص الذي اكتشفه عام 1912 ميلادية بين مجموعة من الكتب كان قد اشتراها من قصر (موندرايوني) (Villa Mondragone) الواقع في مدينة (لاتسيو) الإيطالية والذي تم بناؤه عام 1573 ميلادية.. حيث كان القصر مملوكا لأحد النبلاء آنذاك ثم انتقل لأكثر من شخص على مدى

السنوات.. إلى أن تحول في النهاية إلى مدرسة دينية في القرن التاسع عشر ولغاية عام 1953 ميلادية.. وقد كان بعض العاملين في المدرسة يبيعون الآثار الموجودة فيها بالسر للحصول على المال.. فاشترى منهم (ويلفريد فوينتش) مجموعة من الكتب كان هذا الكتاب من ضمنها.. وقدّمه إلى الجهات المسؤولة لتتم دراسة محتواه من قبل العلماء وخبراء اللغات والمخطوطات القديمة.. وحتى من قِبل مختصين في فك الشفرات السرية من الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى والثانية.. لكن كل هذا لم يأت بأي نتيجة.. ويمكنك العثور على صور كثيرة للكتاب لو بحثت في الشبكة العنكبوتية.. فهو شهير جدا في عالم المخطوطات القديمة وعلم الشفرات السرية (Cryptography).. وهو موجود حاليا في مكتبة جامعة (Yale) الأمريكية.. وما زال العلماء يجهلون كل شيء عن الهدف من المخطوطة وهوية مؤلفها واللغة التي كُتِبت بها وكيفية وصولها إلى ذلك القصر.

(31) حقيقة بالطبع.

(32) حقيقة.. ويعود اكتشاف وحدة (بلانك) (Planck) إلى العالم الألماني

(ماكس بلانك) (Max Planck) عام 1900 ميلادية.. وتعتبر وحدة (بلانك) أصغر وحدة قياس في الفيزياء على الإطلاق بالفعل.. إلى درجة أن ذرّة الـ(هيدروجين) -التي لا نراها بالعين المجردة- تعتبر بالنسبة له بحجم مجرتنا درب التبّانة تقريبا.

(33) جمع (ضيف) للمؤنث هو (ضيوف).. وليس (ضيفات) كما قد يظن البعض.

(34) حقيقة